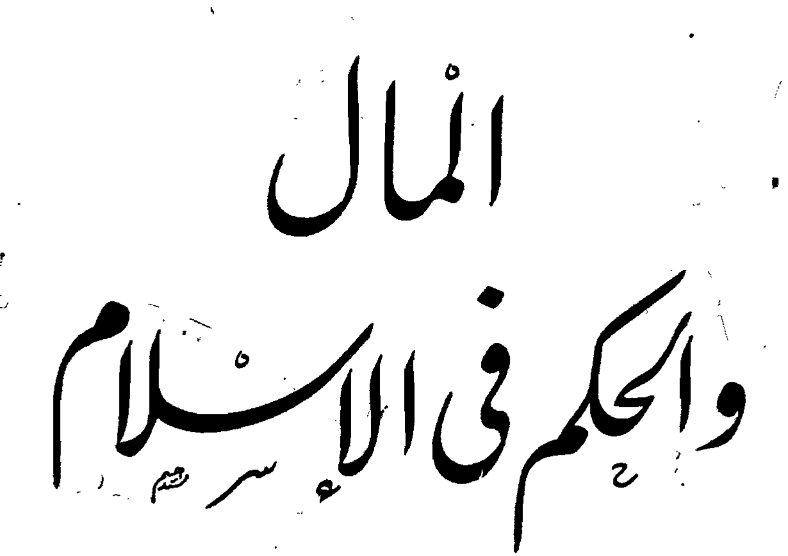
١٩٠

عبد القادر عودة



القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربى
١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون »

(آل عمران : ١٠٤)

« قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين »

(يوسف : ١٠٨)

كلمة المؤلف

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

« وبعد » فإن المسلمين فى كل أنحاء العالم قد جهلوا الإسلام وانحرفوا عن طريقه الواضح ، حتى لم يعد فى الدنيا كلها بلد يقام فيه الإسلام كما أنزله الله ، سواء فى الحكم والسياسة ، أو الاقتصاد والاجتماع ، أو غير ذلك مما يمس مصالح الأفراد والجماعات ، ويقوم عليه نظام الجماعة ، ويدعو إلى صلاحها وإسعادها .

ولقد ظل المسلمون ينحرفون عن الإسلام حتى هجروا أحكامه ، ثم اتخذوا لأنفسهم أحكاماً تقوم على أهوائهم ومنافعهم ، فأدى ذلك إلى التحلل والفساد ، وملأ بلادهم بالشرور والآثام ، وعاد على جماعتهم بالبؤس والشقاء .

وفى ظلال هـذه المحنة التى امتحن بها الإسلام نبت دعاة الإسلام الحقيقيون فدعوا الناس إلى الإسلام الصحيح ، وربوا الشباب عليه ، وجعلوا كل مسلم داعية إلى الإسلام بعمله وقوله وسيرته ، وصبروا على ما امتحنوا به حتى فتح الله عليهم ، فانتشر الوعى الإسلامى ، وتيقظ المسلمون ، وتحقق ذوو البصائر أن لا حياة للمسلمين بغير الإسلام ، وأن صلاح حالهم وسعادة جماعاتهم لن تكون إلا إذا رجعوا للإسلام وأقاموا أمرهم عليه ، وحكموه فى كل شئونهم .

والمسلمون اليوم أحوج ما يكونون إلى معرفة حقائق الإسلام وقد تكالب عليهم الاستعمار والشيوعية ، وزينت لهم الديموقراطية والاشتراكية ، ليعلموا أن

لا عاصم لهم من الاستعمار والشيوعية إلا الإسلام ، وأنه لا يحقق العدالة والمساواة والحرية فى بلادهم إلا الإسلام .

وواجب كل مسلم مستطيع أن يبين للمسلمين ماخفى عليهم من أحكام الإسلام ، وأن يعرضه عليهم فى لغة سهلة يهضمونها ، وفى أسلوب عصرى يقبلون عليه .

وإنى لأرجو أن أكون قد قدمت للمسلمين فى هذا الكتاب ما يجب أن يعلمه كل مسلم عن نظرية الإسلام فى الحكم ، وأسلوبه فى الشورى ، كما أرجو أن يعلم المسلمون بعد الاطلاع على هذا الكتاب أن أسلوب الإسلام فى الحكم هو خير ما عرفه العالم وأن كل نظريات الشورى الوضعية ليست شيئاً يذكر بجانب نظرية الإسلام .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى الخير ، وأن يجمع كلمتنا على الإسلام ؟

عبد القادر عوده

الخلق والتسخير

هذا الكون خلقه الله

هذا الكون الذي نعيش فيه ونعمره ، ونتسلط على ما فيه من حيوان ونبات وجماد ، ونحاول أن نحصل على ما فيه من خيرات ، ونستغل ما فيه من قوى ، هذا الكون ليس من صنع البشر ولا من عمل أيديهم ، وما فى استطاعتهم خلقه ولا خلق ما دونه ، وما كانوا فى يوم من الأيام أهلاً لذلك ولن يكونوا ، فما هم إلا بشرٌ خلقهم خالق كل مخلوق « بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » المائدة : ١٨ وما فى قدرة المخلوقات أن تخلق ولو تظاهرت على الخلق ، ولو اجتمع كل البشر على أن يخلقوا أحقر الذباب وأضعفه لعجزوا ، ولو سلبهم أضعف الذباب وأحقره شيئا لما منعوه عنه ولا استنقذوه منه « إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يسلُبهم الذُّباب شيئاً لا يستنقذوهُ منهُ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب » الحج : ٧٣

هذا الكون الذى نعيش فيه ونعمرهُ خلقهُ الله الذى خلق الناس من تراب ثم سوّاهم بشراً وصوّرهم ذكوراً وإناثاً فأحسن صورهم ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلّهم ينظرون ويتفكرون فيذكروا نعمة الله عليهم ، ويشكروه على ما خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم من فضله « واللهُ خلقكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » فاطر : ١١ . « يا أيها الإنسانُ ما غرّكَ بربك الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك فى أىّ صورة ما شاء ركّبك » الانفطار : ٥ ـ ٨ « وَصَوَّرَكم فأحسنَ صوركم » غافر : ٦٤ : « واللهُ أخرجكم من بطون أُمّهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة لعلكم تشكرون » النحل : ٧٨

هذا الكون الذى نعيش فيه خلقه الله جلّ شأنه خالق كل شىء مما نعلم ومما لانعلم ، ومما ندرك ومما لاندرك ، ومما نستطيع تصوّره ومما نعجز عن تصوره والإحاطة بكنهه « ذلكم اللهُ ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه » الأنعام : ١٠٢

فهو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات ، وما بينهما من أجرام لايحيط بها العلم ، ولا يدركها الوصف ، ولا يحصيها العد ، وهو القادر على أن يخلق غيرها إن شاء ، إذ الخلق متعلق بمشيئته ، وراجع لأمره « ولله مُلْكُ السَّموَاتِ والأرض وما بينهما يخلقُ مَا يشاء » المائدة : ١٧ « لله مُلْكُ السموات والأرض وما فيهنَّ » المائدة : ١٢٠

وهو الذى خلق الأزواج كلها من النبات والحيوان والإنسان ، ومما نحيط بعلمه ومما لانعلم عنه شيئا ، ورتب على اتصالها اللقاح والإحبال فالإثمار والإنسال حفظا للنوع واستبقاء للحياة « سبحانَ الذى خلق الأزواج كلها مما تُنْبِتُ الأرض ومن أنفسِهم ومما لايعلمون » ياسين : ٣٦

وهو الذى جعل الظلمات والنور ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمروالنجوم وهو الذى ربط الظلمات بالليل ، والنور بالنهار . وجعل الشمس دليلا على النهار ، وجعل القمر والنجوم لنهتدى بها فى ظلمات البرِّ والبحر « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » الأنعام : ١ « هو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر » الأنبياء : ٣٣

وهو الذى خلق الموت والحياة ، وجعل بعد الموت البعث والنشور ليبلو الناس فيما آتاهم وليجزيهم بما كانوا يعملون « الذى خلق الموت والحياةَ ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملا » الملك : ٢

هذا الكون مسخر للبشر

والله الذى خلق هذا الكون قد سخره لخدمة البشر وسلطهم عليه بما وهبهم من أبصار وأسماع وعقول تساعدهم على استخدام ما فى الكون من خيرات ، واكتشاف ما فيه من قوى ، واستغلال ذلك كله فى سبيل نفعهم وإسعاد أنفسهم « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة » لقمان : ٢٠

فالله قد سخر للبشر — وهم يعيشون على وجه الأرض — كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وكل ما فى البرّ وما فى البحر ، فالسحاب مسخر لخدمتهم يحمل الماء المتجمع من البحار والأنهار ثم يرسله مطراً يحيى به الأرض بعد موتها ، ويُنبت فيها من كل الثمرات رزقاً للعباد ، والبحار والأنهار مسخرة لخدمة البشر ، منها يتكوّن السحاب ، وعلى مائها يعيش النبات والإنسان وكل الحيوان ، وعليها تسير الفُلك تحمل الناس إلى بلدٍ لم يكونوا بالغيه بغيرها ، وفى أعماقها تعيش مخلوقات أخرى يتخذ منها الناس طعاماً وحلية ، والشمس والقمر مسخّران لخدمة البشر ، يمدان الكون بالضوء والحرارة ، وهما ضرورتان من ضرورات الحياة ، وكل مافى الكون من صغير وكبير ، ومعلوم ومجهول ، مسخر لخدمة البشر ، لهم الحق فى استطلاع أسراره والسيطرة عليه ، واستغلال منافعه ما استطاعوا لذلك سبيلا ، فالكون مُذلل لهم بإذن الله ، وهم مسلطون عليه بأمر الله « اللهُ الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضلهِ ولعلكم تشكرون ، وسخّر لكم ما فى السموات والأرض جميعا منه إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » الجاثية ١٢ ، ١٣ « اللهُ الذى خلقَ السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج بهِ من الثمرات

رزقا لكم وسَخّرَ لكم الفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بأمرِهِ وَسَخّرَ لكم الأنهارَ ، وسخر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين ، وسخر لكم الليل والنهارَ ، وآتاكم من كل ما سألتموهُ ، وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كفَّار » إبراهيم : ٣٢ — ٣٤

البشر مسخر بعضهم لبعض

وإذا كان الله جلّ شأنه قد سخّر الكون للبشر ، فإنه قد سخّر بعض البشر لبعض ليستطيعوا أن يعيشوا فى جماعة منظمة متعاونة ، وليكونوا أقدر على استغلال الكون المسخَّر لهم والانتفاع بخيراته ، والمساهمة فى بناء حياة إنسانية مرضية . « نحنُ قَسَمْنَا بيْنَهُمْ مَعِيشَتَهم فى الحياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهم فوْقَ بعْضٍ دَرَجات ليَتَّخِذَ بَعْضهم بعضاً سُخريًّا وَرَحْمَة رَبك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون » الزخرف : ٣٢ .

وما سخّر الله بعض البشر لبعض إلا لتتم حكمته فيهم وليبلوهم فيما آتاهم ، فمن أحسن فلنفسه وَمن أَساءَ فعَليها وَمَن كفَرَ فعليه كُفره ، ومن آمن نفعه إيمانه : « وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْض وَرَفَع بَعْضَكم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجات ليَبْلوَكم فيما آتَاكُمْ إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغفُورٌ رَحِيمٌ » الأنعام : ١٦٥ : « هُوَ الذى جعَلَكم خَلائِفَ الأَرْضِ فمَنْ كفَر فعَلَيْهِ كفْره وَلا يزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرهم عِنْدَ رَبِّهم إلاّ مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرهم إلا خَساراً » فاطر : ٣٩ .

ولم يجعل الله تسخير بعض البشر لبعض قائماً على التحكم ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً ، وإنما ربط التسخير بطبائعهم وظروف إمكانهم ، فجعلهم درجات بما اختلفوا من قوة وضعف ، وعلم وجهل ، وجد وخمول ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف المشتقة من طبائعهم ومعارفهم وظروفهم وبيئاتهم ، ولن يمنع ذلك من

كان فى درجة دنيا أن يرتفع بعمله وإيمانه إلى درجة أعلا من درجته ، وأن يصل إلى القمة فى عشيرته وأمته ، فإن العبرة فى الإسلام بالأعمال والإيمان ، ولن يضيع الله عمل مؤمن : « إِنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » آل عمران : ١٩٥ . ما دام العامل قد أحسن عمله ووصل به إلى درجة الإحسان : « إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » الكهف : ٧٠ :

ولقد آلى الله عَلَى نفسه ليحيين حياة طيبة كل من عمل عملا صالحاً وهو مؤمن فقال جل شأنه : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون » الأنعام : ١٣٢ . ودعا الله المؤمنين إلى العمل وحثهم عليه : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون » التوبة : ١٠٥ . ورتب على العمل درجاتهم ، فمن رفعه العمل فلا يحطه شىء ومن حطه العمل فلا يرفعه شىء : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون » الأنعام : ١٣٣ .

الاستخلاف فى الأرض

البشر مستخلفون فى الأرض

ولقد خلق الله البشر من الأرض واستعمرهم فيها : « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُم فيها » هود : ٦١ . فلا حرج أن نقول إنّ مكان البشر فى الأرض هو مكان المُستعمر فيها ، المسلط عليها ، وأن الأرض بما فيها مسخرة لهم ، مذللة بإذن ربهم ، وأن حقوقهم وواجباتهم يحددها اللهَ الذى استعمرهم فى الأرض ، ومنحهم حق التسلط عليها ، ولكننا نفضل أن نصفهم بصفة الاستخلاف التى وصفهم بها الله أكثر من مرة .

والقرآن صريح فى أن الله جل شأنه خلق آدم أباالبشر ليكون خليفة فى الأرض « وَإِذْ قَالَ رَبكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِى جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفة قالوا أَتجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قال إِنى أَعْلَمُ مَالاَ تعْلَمُون » البقرة : ٣٠ .

والمفسرون مختلفون فى ماهية خلافة الآدميين[1] فالبعض يرى أن الآدميين خلفوا جنساً سابقاً كان يسكن الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء ، ومن ثم فالخلافة على هذا الرأى خلافة جنس سابق . والبعض يرى أن الخلافة عن الله جل شأنه لا عن جنس آخر ، وأن الله ساط الإنسان على الأرض يقيم فيها سننه ، ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه . وسنرى فيما بعد أن هذا الاختلاف لا أهمية له فى بحثنا .

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٥٧ — ٢٦١ .

استخلاف البشر مقيد بقيود

ولا جدال فى أن الله أوجب على البشر حين أسكنهم الأرض أن يطيعوا أمره وأن ينتهوا بنهيه ، وأنه عهد إليهم ألا يعبدوا إلا إياه ، وألا يخشوا غيره ، وأن يتحلوا بالتقوى ، وأن يحذروا فتنة الشيطان ، وأعلمهم أن من اتبع هدى الله فقد اهتدى ، ومن كفر بآيات الله وكذب برسله فقد ضلّ وغوَى ، وأنه جعل للمهتدين الأمن ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وجعل للكافرين المكذبين النار هم فيها خالدون ، « قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هم يَحْزَنون . وَالذين كَفرُوا وكَذّبوا بآياتنا أُولئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خالدُون » البقرة : ٣٨ ، ٣٩ . « قال اهْبِطوا بَعضكم لبعْضٍ عدوٌّ وَلكم فى الأرْض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِين ، قالَ فيها تحيوْن وَفيها تمُوتون وَمِنها تُخرَجُون . يابنى آدم قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكم لباسًا يُوَارِى سَوْءاتكم وريشاً وَلباس التَّقْوَى ذلك خَيْرٌ ، ذلك مِنْ آياتِ اللهِ لَعلَّهم يذكَّرُون . يا بنِى آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أَخْرَج أبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ ينزعُ عَنْهُمَا لباسَهُمَا ليُرِيَهُمَا سَوْءاتهما إنهُ يرَاكم هُوَ وَقَبِيلهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ، إنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أوْلياء لِلّذِين لا يُؤمنُونِ . وإذَا فَعلوا فاحِشَة قالوا وَجَدْنَا عَليها آباءَنا وَاللهُ أَمرَنا بها ، قُلْ إنَّ اللهَ لا يأمرُ بالْفَحْشاء أتَقُولونَ عَلَى اللهِ مالاَ تَعلمُونَ . قُلْ أمرَ رَبى بالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكم عِنْدَ كلَّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلصِين لهُ الدينَ كما بدأَكم تَعودُون . فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَليهمُ الضَّلاَلة إنهُم اتخذوا الشَّيَاطين أَوْلِيَاء مِنْ دُونِ اللهِ وَيحْسَبُون أنهُمْ مُهْتَدُون » الأعراف : ٢٤ ، ٣٠ .

وغداً يحاسب الله البشر على زيغهم وضلالهم ، وعلى تركهم طاعة الله واتباعهم الشيطان ، ويسألهم فلا يجدوا لأنفسهم حجة ، ثم يقذف بهم أفواجاً إلى النار يصلون

حرها جزاء ما عصوا الله وكفروا بآياته ولم يقوموا بعهده « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التى كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » يس : ٦١ — ٦٥ .

أنواع الاستخلاف

واستخلاف البشر فى الأرض نوعان : استخلاف عام ، واستخلاف خاص .

فالاستخلاف العام هو استخلاف البشر فى الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها ومسلطين عليها « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » هود : ٦٢ ، وقد بدأ هذا الاستخلاف بآدم عليه السلام ومن بعده كل ذريته فهم جميعاً مُستَعْمَرون فى الأرض ، استعمرهم الله جل شأنه فيها ، وسخرها لهم وسلطهم عليها بإذنه « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ .

والاستخلاف الخاص هو الاستخلاف فى الحكم ، وهو نوعان : استخلاف الدول واستخلاف الأفراد ، والاستخلاف فى الحكم هو بنوعيه منة أخرى يمن الله بها على من يشاء من عباده أمماً وأفراداً بعد أن من عليهم جميعاً بنعمة الاستخلاف فى الأرض « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » القصص : ٥ ، « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » السجدة ٢٤ .

واستخلاف الدول معناه الأول تحرير الأمة واستقلالها بحكم نفسها وجعلها دولة لها من السلطان ما يحمى مصالح الأمة ويعلى كلمتها ، ومعناه الثانى اتساع سلطان الدولة حتى يشمل فوق أبناء الأمة أمماً وشعوباً أخرى .

واستخلاف الدول إذا كان بإذن الله وبأمره منة يمن بها على الأمم ، إلا أن

للاستخلاف مسبباته التى تباشرها الأمم والشعوب فتؤهلهم للاستخلاف ، وتمكن لهم فى الأرض ، وتتم بذلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تحويلا . فلا يمكن أن يجىء الاستخلاف اعتباطاً و بلا عمل ، و إنما يجىء نتيجة العمل الشاق والجهد المستمر ، ولقد وعد الله جل شأنه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف فى الأرض ، فلم يجعل الإيمان وحده هو الذى يرشح المؤمنين للاستخلاف ، و إنما وعد المؤمنين بالاستخلاف إذا عملوا الصالحات ، والمقصود بالصالحات كل ما يصلح شأنهم فى الدنيا من الإعداد والاستعداد والتفوق ، وما يصلح شأنهم فى الآخرة من الطاعة واجتناب المعاصى . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » النور : ٥٥ .

واستخلاف الأفراد هو الاستخلاف فى الرئاسة وقد يسمى المستخلف خليفة كما سمى داود عليه السلام « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

وقد يسمى المستخلف إماماً كما سمى إبراهيم عليه السلام و بعض رؤساء بنى إسرائيل . « و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » البقرة : ١٢٤ ، « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣

وقد يسمى المستخلف ملكا « و إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين » المائدة : ٢٠ ، « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » البقرة :٢٤٧ .

سنة الله فى استخلاف الحكم

وسنة الله جل شأنه فى استخلاف الدول والأفراد أن يستخلف الأمة ما كانت أهلا للاستخلاف ، وأن يستخلف الأفراد ما كانوا أهلا لذلك ، يبتليهم جميعاً فيما آتاهم . « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » الأنعام : ١٦٥ ، فإن استقام المستخلفون على أمر الله ، ودعوا إليه ، وعبدوه وحده لا شريك له ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وفعلوا الخيرات ، واجتنبوا السيئات ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » الحج : ٤١ « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » السجدة : ٢٤ « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ ، إذا فعل المستخلفون ذلك مكن الله لهم فى الأرض ، وآتاهم من كل شيء سببا ، كما مكن لذى القرنين وقومه « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا » الكهف : ٨٤ ، وكما مكن ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء مما لم يكن يحلم به أو يتخيله « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » يوسف : ٥٦ ، وكما مكن لبنى إسرائيل فى الأرض على ضعفهم وقوة أعدائهم ، بعد أن عبدهم الفراعنة واستعبدوهم ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم و يستحيون نساءهم ، فمنحهم الله جل شأنه القوة و بوأهم السلطان ، ورزقهم من الطيبات ، وجعل فيهم النبوة والملك ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات » يونس:٩٣ « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » المائدة : ٢٠ ، وكما مكن لقوم يونس لما آمنوا فأصلح لهم أحوالهم

فى الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين ، « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

والله جل شأنه غنى عن العالمين ، رحيم بهم ، فإذا أمرهم أن يأتوا أو يدعوا فإنما يأمرهم بما فيه صلاحهم ، وبما يؤدى إلى نفعهم ، وهو القادر على أن يذهب بالمكذبين ويستخلف أناساً غيرهم ، ولن يعجزه ذلك وقد جاءوا من ذرية غيرهم . « وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » الأنعام : ١٣٣ .

وما استقام المستخلفون فى الأرض على أمر الله فهم عند وعد الله لهم فى تمكين وعزة ، يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان ، حتى إذا ما كفروا بأنعم الله وكذبوا بآياته ، وخرجوا على ما أرسل به رسله ، وظلموا وبغوا وافتتنوا بالقوة والسلطان والعلم ، أخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون ، فسلبهم نعمتهم ، وأذهب دولتهم واستخلف غيرهم ، ولم تغن عنهم عقولهم ولا علومهم ولا أموالهم من شىء ، لما جاء أمر ربك وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » يونس : ١٣ ، ١٤ « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » الأنعام : ٦ ، « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون » الأحقاف : ٢٦ .

أمثلة من المستخلفين السابقين

ولقد ضرب الله لنا من الأمثلة ما فيه مزدجر ، و بين لنا من أخبار السابقين ما فيه غناء لكل ذى لب ، فهؤلاء قوم نوح كذبوه واستضعفوه ومن معه فاستخلف الله هؤلاء الضعفاء وأهلك الأقوياء الذين غرتهم قوتهم وحملهم الغرور على تكذيب آيات الله « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » يونس : ٧٣ .

وهذا هود يدعو قومه عادا و يذكرهم ما حدث لقوم نوح ويخوفهم منه فيقول لهم : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » الأعراف : ٦٣ . أى اذكروا كيف استخلفكم الله فى الأرض بعد أن أهلك قوم نوح بمثل ما تفعلون ، فلما يئس من إصلاحهم قال لهم : « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم و يستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ » هود : ٥٧ .

وهذا صالح يذكر قومه بما أنعم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء من بعد عاد ، ويحذرهم عاقبة البغى والفساد فى الأرض « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » الأعراف : ٧٤ .

وموسى يشكو له قومه ما نالهم من أذى فرعون ، وما أصابهم من بغيه و بطشه ، فيبشرهم بأن سنة الله لابد آتية ، و يظهر خشيته من أن تأتيهم نعمة الله فيكفروا بها و يفعلوا ما كان يفعله غيرهم من المعاصى « قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » الأعراف : ١١٩ .

وقارون وفرعون وهامان ، تجبروا فى الأرض واستكبروا بغير الحق ، و نسوا نعمة الله عليهم ، فلم ينفعهم ما يملكون وما يعبدون من دون الله شيئاً ، وأخذهم الله

بذنوبهم ، فمنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به الأرض ، ومنهم من أغرق « وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠ .

مركز المستخلفين فى الأرض

علمنا أن الله جل شأنه استخلف البشر فى الأرض ، وسخر لهم ما فى السموات والأرض جميعاً وألزمهم أن يتبعوا هداه وأن يطيعوا أمره وينتهوا بنهيه ، ومقتضى ذلك أن الاستخلاف فى الأرض رتب للبشر حقوقاً وألزمهم واجبات ، فإذا أردنا أن نحدد مركز المستخلفين فى الأرض فينبغى أن نعرف معنى الاستخلاف اللغوى وأن نستخرج معناه الفقهى .

والاستخلاف لغة هو إقامة خَلَف يقوم مقام المستخلِف أو مقام الغير على شىء ما، فإذا طبقنا هذا المعنى اللغوى على استخلاف الله جل شأنه لآدم وذريته فى الأرض قلنا إن البشر إما خلفاء لله أو لغيره .

وهذه النتيجة هى التى انتهى إليها المفسرون فى تفسيرهم لقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » البقرة : ٣٠ فبعض المفسرين كما قلنا من قبل يرى أن البشر خلفوا خلقاً آخر كان يسكن الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء والبعض يرى أن الخلافة عن الله جل شأنه لا عن خلق آخر . ولكن الكثيرين لا يجيزون أن يقال لبشر خليفة الله ، وحجتهم إنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت ، والله لا يغيب ولا يموت ، كما يحتجون بأن أبا بكر

قيل له يا خليفة الله فقال « لست خليفة الله ولـكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » بينما يجيز غيرهم أن يقال لبشر خليفة الله ما دام قائماً بأمر الله فى خلقه ، ولقوله جل شأنه « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » الأنعام : ١٦٥ . ولا شك أن الرأى الأخير هو الأصح ، فما ينبغى أن يقاس بالبشر من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وإذا كان شأن البشر أن يستخلفوا فى الغيبة والموت فإن من شأن الله أن يستخلف وهو شاهد لا يغيب حى لا يموت ، ويكفى قوله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وقوله « هو الذى جعلـكم خلائف الأرض » ليجوز القول بأن البشر خلفاء الله خصوصاً وأنه استخلفهم فى ملـكه وسخره لهم « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » المائدة : ١٢٠ « وسخر لـكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » الجاثية : ١٣ .

وإذا صح هذا فلا يهمنا أن نتحقق مما إذا كان البشر خلفوا خلقاً سابقاً عليهم أم لا ، لأن هذا الخلق السابق إنما استخلفه الله فى الأرض كما استخلف البشر فإذا خلف البشر من كانوا خلفاء لله فالبشر قد صاروا بذلك خلفاء لله أيضاً ، ومن ثم ننتهى فى كل الأحوال إلى أن خلافة البشر عن الله جل شأنه وليست عن غيره .

أما معنى الاستخلاف الفقهى فهو النيابة أو القوامة بحسب مدركات البشر الفقهية ذلك أن الله استخلف البشر فى الأرض بقوله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وقد حدد الله جل شأنه وظيفة البشر فى هذا الاستخلاف بقوله « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » هود : ٦١ . والاستعمار معناه التمكين والتسلط وهذان المعنيان ظاهران فى قوله تعالى « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لـكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » الأعراف : ١٠ . وقوله « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » الحج : ٤١ . وقوله « وسخر لـكم ما فى السموات ومافى الأرض جميعاً منه » الجاثية : ١٣ .

والبشر فى تسلطهم على الكون وانتفاعهم بماسخر الله لهم من مخلوقات مقيدون بطاعة الله والاهتداء بهديه والابتعاد عما نهى عنه « فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » البقرة : ٣٨ . ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » يس: ٦١،٦٢

والبشَرُ بعد ذلك ليسوا إلا بعض ما خلق الله « اللهُ الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » الروم : ٤٠ : خلقهم من تراب وجعلهم بشراً ينتشرون فى الأرض « ومِنْ آياتهِ أنْ خلقكم مِنْ تُرابٍ ثمَّ إذا أنتم بشَرٌ تنتشرون » الروم : ٢٠ : وماخلقهم إلا ليعبدوه حقَّ عبادته « وماخلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدُون » الذاريات : ٥٦ : وسمّاهم عِباده وعبيده ، وهو القاهر فوقهم ، يجزيهم بما قدَّمت أيديهم ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » الأنعام : ١٨ : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربُّك بظَلّامٍ للعبيد » فُصِّلَتْ : ٤٦ :

فاستخلافُ البشرِ فى الأرض معناه أنَّ الله جلّ شأنه أسكنهم الأرض واستعمرهم فيها ومنحهم حق التسلط على مافى الكون للانتفاع بما فيه من خيرات فى حدود أمر الله ونهيه ، وإذا كان الله قد أسكن عبيده فى أرضه وسخر لهم ما فى الكون منحة منه فإن ما فى أيدى هؤلاء العبيد من ملك الله إنما هو من الناحية الفقهية عارية ينتفع بها البشر ، والقيام على العارية فى فقه البشر نيابة ، وإن كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالكه ، وإذن فكل فرد من أفراد البشر يعتبر نائباً عن ربه جلّ شأنه فيما سخّر الله للبشر من الكون وما سلطهم عليه وهو مقيد فى كل تصرفاته بحدود هذه النيابة .

وهكذا لايكاد معنى استخلاف البشر فى الأرض لغة يختلف عنه فقهاً ، ونتيجة ذلك أن مركز المستخلفين فى الأرض هو مركز الخليفة أو النائب ، وأن الخلافة

أو النيابة هى عن الله جلّ شأنه ، وهى قائمة فى حدود ما سَخّر الله للبشر من مخلوقاته وما سلطهم عليه من ملكه ، وما خوّلهم فى ذلك كله من الاستغلال والانتفاع .

ويجب أن لا يفوتنا أن تسخير الكون للبشر وتسليطهم على مُلك الله لا يخرج هذا الذى سُخّر لهم وسلطوا عليه من سلطان الله ، ولا يحدّ من هذا السلطان شيئاً ، فالبشر مثلا يحرثون الأرض ، ويلقون فيها الحب ولكنهم يرجون الإنبات والإثمار من الرّب ، وما يحرثون ويلقون الحب إلا بما منحهم الله من حياة ، وبما ركَّب فيهم من عقول ، وبما علمهم من علم ، فهم يستخدمون نعمة الله للانتفاع بنعمة الله ، وما لهم فى ذلك من سلطان إلا سلطاناً منحهم الله إياه .

واجبات المستخلفين فى الأرض

والبَشَر لم يستعمروا فى الأرض ولم يستخلفوا عليها ليفعلوا ما يشاءون دون قيد ولا شرط ، وليتركوا ما يشاءون دون حسيب ولا رقيب ، وإنما استعمرهم الله فى الأرض واستخلفهم عليها ليعبدوه وحده لا شريك له ، وليطيعوا أمره ، وينتهوا بنهيه ، فإذا كان استخلافهم فى الأرض قد منحهم بعض الحقوق ، فإنه قد حملهم كثيرا من الواجبات .

ولقد أوجب الله على البشر عامة يوم أسكنهم الأرض أن يهتدوا بهديه ، وأن يتبعوا أمره ، « فإمَّا يأتينكم مِنِّى هُدًى فَمَنْ تبِعَ هُدَاىَ فلا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون » البقرة : ٣٨ : وعهد إليهم ألا يعبدوا الشيطان ، وأن يعبدوا الله « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنَّهُ لكم عدوٌّ مُبِين ، وأنِ اعبدونى هذا صراط مستقيم » يس : ٦١ ، ٦٢ : وكل من هذين النصين أمر عام باتباع ما أنزل الله وتحريم ما عداه .

ووعد الله جلّ شأنه المؤمنين به ، المهتدين بهديه ، أن يُبَدِّل خوفهم أمناً ، وضعفهم قوة ، وأن يستخلفهم فى الحكم كما استخلف الذين من قبلهم ، وأن

يُمكِّنَ لهم ويجعل لهم دولة في الأرض وسلطاناً على الناس والدول ، ما داموا قائمين بأمر الله ، يعبدونه لا يشركون به شيئا ، ولا ينحرفون عن طاعته ، قليلا ولا كثيرا « وعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبَدِّلَنَّهُمْ من بعد خوفهم أمْناً يعبدوننى لا يُشركون بى شيئا » النور : ٥٥

و بين الله لنا واجبات المستخلفين فى الحكم فى أخصر عبارة وأجمعها فقال : « الذين إن مكّناهم فى الأرْضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمَرُوا بالمعرُوف وَنَهَوْا عَنِ المنكَرِ ولله عاقبةُ الأمُور » الحج : ٤١ . فمن واجبات المستخلفين فى الحكم دولاً وأفراداً أن يقيموا الصلاة ، ولا يقيمها إلا مؤمن يعترف بأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذا الاعتراف يقتضى واجبات لا حصر لها .

ومن واجبات المستخلفين فى الحكم إيتاء الزكاة ، ولا يُؤْتى الزكاة إلا مؤمن يسلم بما عليه من واجبات ، و يعترف بما فى ذمته للغير من حقوق .

ومن واجبات المستخلفين فى الحكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من استقام على أمر الله ، وتمسك بحبله ، وحرص على طاعته .

وقد اقتصرت الآية على هذه الواجبات الثلاث ، لأن توفرها دليل على توفر غيرها مما يوجبه الإسلام ، فإقامة الصلاة فى الأمة دليل على الإيمان والطاعة ، و إيتاء الزكاة دليل على أخذ النفس بالحق ورد الحقوق لأربابها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل على الاستمساك بما أمر الله ودعوة الغير إليه وكفهم عن الفسوق والعصيان .

والمستخلفون فى الحْكم ليسوا إلا بشراً مستخلفين فى الأرض ، فإذا وجب

عليهم كحاكمين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر فانه يجب عليهم كبشر مستخلفين فى الأرض أن يطيعوا الله ويهتدوا بهديه، وينتهوا عما نهى عنه.

ونخلص من كل ما سبق أن المستخلفين فى الأرض سواء كان استخلافهم عامًّا أو خاصًّا عليهم واجبات عديدة تدخل كلها تحت عنوان عام هو طاعة الله، أى الائتمار بأمره والانتهاء عما نهى عنه.

جزاء تعدى حدود الاستخلاف

رأينا فيما سبق أن الله استخلف البشر فى الأرض وسَخَّر لهم مخلوقاته وسلطهم على ملكه وخولهم استغلاله والانتفاع به، وإنه قيدهم بطاعته، والاهتداء بهديه، والانتهاء عما نهى عنه؛ وانتهينا إلى أن مركز المستخلفين فى الأرض هو مركز الخليفة والنائب، وإن الخلافة والنيابة هى عن الله جل شأنه.

ومنطق الفطرة يقضى بأن الخليفة أو النائب إذا خرج عن حدود ما مُنحه من سلطان أو ما قيد به من قيود فعمله باطل بطلاناً لا شك فيه، ولا يصح منه إلا ما يدخل فى حدود الخلافة أو النيابة.

وهذا هو نفس منطق الإسلام دين الفطرة، فنصوص القرآن قاطعة فى أن الشرك بالله وكراهة ما أنزل الله وتكذيب آياته والكفر بعد الإيمان، كل ذلك محبط للأعمال: «ولقد أُوحىَ إليك وإلى الذين مِنْ قبلِك لَئِنْ أَشْرَكْتَ ليحْبطَنَّ عملك وَلَتَكونَنَّ مِنَ الخاسرِين» الزمر: ٦٥: «ذلكَ بأَنهم كرِهُوا ما أَنزَلَ اللهُ فأَحْبَط أعمالهم» محمد: ٩: «والذين كَذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حَبطت أعمالهم» الأعراف: ١٤٧: «وَمَن يرتَدِدْ مِنكم عنْ دِينه فَيمت وهُو كافرٌ فأُولئك حَبطت أَعمالهم فى الدُّنْيا والآخِرة» البَقرة: ٢١٧.

وحبوط العمل معناه ضياع العمل و بطلانه بحيث يعتبر كأن لم يكن له وجود ، وهذا مانسميه فى عرفنا القانونى بالبطلان المطلق أى البطلان الذى لا يقبل التصحيح .

وكما يترتب البطلان على الشرك بالله وكراهة ما أنزل وعلى الإلحاد والكفر بعد الإيمان ، فإنه يترتب أيضاً على عصيان المؤمنين أمر الله ورسوله ، فكل مؤمن بالله ورسوله عصى الله ورسوله فى أمر صغير أو كبير أو خرج على الطاعة فى أى شىء فعمله الذى عصى به الله ورسوله أو خرج به على الطاعة إنما هو عمل باطل لا يقبل التصحيح ، وذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسُول ولا تبطِلوا أعمالكم » محمد : ٣٣ . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى من عمل عملا خارجاً على ما جئنا به فعمله مردود لا أثر له .

ويستخلص من النصوص السابقة أن كل عمل خارج عن حدود الله هو عمل باطل بطلاناً مطلقاً ولا أثر له من الوجهة الشرعية ، سواء كان العمل حاصلاً من مؤمن أو كافر ومن معترف بالله أو منكر له ، وليس لمسلم أن يعترف بهذا العمل أو يصححه أو يقوم بتنفيذه ، أيا كان نوع العمل حكما كان أو إدارة أو سياسة أو اقتصاداً أو تثقيفاً أو غير ذلك ، وسواء كان تصرفاً شرعياً أو فعلا مادّياً ، وسواء وقع فى دار الإسلام أو فى دار غيره .

ذلكم هو حكم الإسلام الذى جعله الله للناس ديناً : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَام » آل عمران : ١٩ . وأعلمهم أنه لا يقبل منهم التدين بغيره : « وَمَنْ يبتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » آل عمران : ٨٥ . ودعاهم إلى أن يتمسكوا به ويموتوا عليه : « يا أيها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَموتنَّ إلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُون » آل عمران : ١٠٢ .

المـــال مال الله

ماذا يملك البشر فى هـذا الـكون

رأينا فيما سبق أن هذا الـكون خلقه الله الذى خلق كل شىء ، وأنه سخره لمنفعة البشر ، وسلطهم عليه بما وهبهم من عقول ، وأنه استخلف البشر واستعمرهم فى الأرض ولـكنه قيدهم بطاعته والاهتداء بهديه .

ولاشك أن البشر فى تسلطهم على الـكون ، واستغلال ما فيه من قوى ، والانتفاع بما فيه من خيرات ، يحتاجون فى حفظ حياتهم والاحتفاظ بقوتهم ونشاطهم إلى طعام ودواء ولباس وفراش ومأوى ، كما يحتاجون إلى ما يستعينون به على استغلال الـكون من أدوات وآلات وحيوانات .

واستغلال الـكون بعد ذلك يقتضى البشر أن يسيطروا على بعض الأرض يستنبتون فيها الزرع أو يرعون ما فيها من حشائش ، أو يستغلون ما فيها من أشجار ، أو يستخرجون ما فيها من معادن أو زيوت ، أو يقيمون عليها مساكنهم ومخازنهم ومتاجرهم ومصانعهم وقراهم ومدنهم .

ثم إن عجز البشر فى طفولتهم وشيخوختهم ومرضهم يدعوهم لأن يدخروا لأبنائهم ما يحميهم فى طفولتهم ، وإلى أن يدخـــروا لأنفسهم ما يعينهم على شيخوختهم ومرضهم .

وقد تنمو الرغبة فى ادخار القليل وتتحول إلى رغبة فى ادخار الـكثير ، وهذا المدخر يتشكل أشكالا مختلفة بحسب ظروف كل شخص فيكون عقاراً أو منقولا أو حيوانات أو معادن .

فهل يتملك البشر كل هذا الذى يحتاجونه أو يحتازونه أو يدخرونه ؟ وما حدود

ملكيتهم ؟ وهل هى ملكية تامة أم هى ملكية ناقصة ؟ وهل هى ملكية مطلقة أم هى ملكية مقيدة ؟

المال لله وللبشر حق الانتفاع

ونستطيع فى سهولة ويسر إذا رجعنا إلى مالدينا من نصوص ورتبنا معلوماتنا ترتيباً منطقياً أن نصل إلى نتيجة واحدة هى أن المال كله لله وأن البشر لا يملكون منه إلا حق الانتفاع به .

فالله جلَّ شأنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من شيء « ذلكم الله ربكم لا إله إلاهو خالق كل شيء » الأنعام : ١٠٢ ، « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » البقرة : ٢٩ ، « الله الذي خلق السموات والأرض » إبراهيم : ٣٢ .

ومنطقنا البشرى يقتضى أن يكون خالق الشيء هو مالكه ، وبهذا المنطق نفسه جاءت نصوص القرآن ، فهى قاطعة فى أن الله له ملك السموات والأرض وما بينهما : « لله مُلك السموات والأرض وما بينهما » المائدة : ١٧ ، وأنه يملك كل شيء فى السموات وكل شيء فى الأرض من صغير وكبير سواء كان له قيمة مالية أو لم يكن له قيمة مالية : « لِلّهِ مُلْكُ السموَاتِ والأرض وما فيهنَّ » ، وأنه جلَّ شأنه يملك كل هذا وحدهُ دون أن يكون له فى ملكه شريك من البشر أو غير البشر ، « ولم يكن له شريكٌ فى الملك » الإسراء : ١١١

ولكن الله جلَّ شأنه استعمر البشر فى الأرض : « هو أنشأكُم من الأرض واستعمركم فيها » هود : ٦١ ، وجعلهم خلائف فيها على ماسبق بيانه : « هو الذى جعلكم خلائف الأرض » فاطر : ٣٩ ، وسخر لهم كل ما خلق فى السموات والأرض وسلطهم عليه بقدر ما يستطيعون من استغلاله واستثماره : « ألم تروا أن الله

سخر لـكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة و باطنة » لقمان : ٢٠ . « وسخر لـكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » الجاثية : ١٣ .

ولم يسخر الله ملـكه لفرد دون فرد ، أو لفئة دون فئة ، و إنمـا سخره للبشر جميعاً وجعله مشاعاً بين عباده الذين استخلفهم فى الأرض ليعيشوا فيه وينتفعو به ، فمـا يعيش أحد منهم فى ملـكه ، وما ينتفع إلا بملك الله ، وليس أحد منهم أحق بملك الله من غيره ، وقد جعل الله منفعته لـكل البشر : فهم فيه سواء .

ولقد بيّنَ الله لعباده الذين استخلفهم فى الأرض أنهم حينما يستغلون ما خلق و يستثمرونه ويحصلون على منافعه لايأتون بشىء من عندهم ، و إنما هو رزق من الله يسوقه إليهم ، وفضل آخر يغمرهم به : « قل من يرزقـكم من السموات والأرض قل الله » سبأ : ٢٤ ، « هل من خالق غير الله يرزقـكم من السماء والأرض » فاطر : ٣ . و إذا لم يكن ثمة من يرزق غير الله فعـلى البشر أن يطلبوا الرزق من الله وحده ، وأن يبتغوه عنده « فابتغوا عند الله الرزق » العنكبوت : ١٧ ، فهو الرازق القوىّ على خلق الرزق و إيصاله للمرزوقين « إنّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتين » الذاريات : ٢٨ .

فملكُ الله مسخر لمنفعة البشر ، ولهم جميعاً أن ينتفعوا به و يستغلوه ويستثمروه و يعملوا فيه ، والله مؤتيهم ثمرات الملك وغلته وأجورهم رزقاً من عنده ، وما لرزقه من نفَاد ، وما جعل الله هذا كله إلا نعمة منه على البشر ، ما يعود عليه من نفع ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرا .

ولقد علمنا فيما سبق أن ما فى أيدى البشر من ملك الله وثمراته إنمـا هو عارية ينتفع بها البشر ، وأن القيام على العارية فى فقه البشر نيابة و إن كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالـكه ، كذلك علمنا أن مركز المستخلفين فى الأرض هو مركز الخليفة أو النائب ، وأن الخلافة أو النيابة هى عن الله جلّ شأنه ، وهى قائمة

فى حدود ما سخر الله للبشر من مخلوقاته ، وما سلطهم عليه من ملـكه ، وما خولهم فى ذلك كله من الاستغلال والانتفاع .

وإذا كان الله جل شأنه وهو مالك كل شيء قد سخر ما يملك لينتفع به عامة البشر الذين استخلفهم فى الأرض ، فإنه جل شأنه هو الذى يمنح كل فرد منهم ما فى يده من هذا الملك الواسع « وَاللهُ يؤتى ملـكه من يشاء » البقرة : ٢٤٧ . سواء كان ما فى يد الفرد قليلا لا يزيد على حاجته ، أو كثيراً يكفى العشرات والمئات « إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » الرعد : ٢٦ . وما تغير هذه المنح أيا كانت صفة الممنوحين ، فما هم إلا بعض أفراد البشر المستخلفين فى الأرض يقومون على ملك الله ، وما هذا الملك إلا عارية فى أيديهم ، وما مركزهم من هذا الملك إلا مركز النائب أو الخليفة ، وما لهم من سلطان على هـذا الملك إلا ما خولهم الله من استغلاله والانتفاع به .

ولقد فرض الله على البشر أن ينفقوا من ماله الذى استخلفهم فيه وجعلهم قواماً عليه « وأنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه » الحديد : ٧ . ولم يترك لهم الخيار فى الإنفاق ، وعجب ألا ينفقوا . وما ينفقون إلا مما رزقهم الله وأتاهم إياه « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقو مما رزقهم الله » النساء : ٣٩ .

وما أمر الله البشر أن ينفقوا إلا ذكرهم أنهم ينفقون من ماله الذى آتاهم ، ورزقه الذى ساقه إليهم ، والنصوص فى ذلك كثيرة منها قوله « وأنفقوا مما رزقنا كم من قبل أن يأتى أحدكم الموت » المنافقون : ١٠ . « يأيها الذين آمنوا أنفقو مما رزقنا كم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » البقرة : ٢٥٤ . « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » إبراهيم : ٣١ . « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » البقرة : ٣ .

وإذا كان المال مال الله وهو عارية فى يد البشر الذين استخلفهم عليه فليس

للبشر أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله فى هذا المال ، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من الناس شيئاً من هذا المال فعليهم أن يبادروا بذلك فما يؤتونهم إلا من مال الله « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » النور ٣٣ .

وعلى كل فرد فى يده شيء من المال — وكل مال هو مال الله — أن يطيع أمر الله فيه ، سواء قلَّ ما فى يده أو كثر « ومَنْ قُدِرَ عليهِ رِزْقُهُ فليُنفق ممَّا آتاهُ الله لا يكلِّفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها » الطلاق : ٧

ولا يظننَّ أحد أن ما فى يده من مال الله هو رزقٌ خصَّه الله به فيمنعه عن غيره ، ويبخل به على من يستحقه ، فإن الله يرزق الناس ويؤتيهم ملكه ليقوموا عليه فى حدود أمره ونهيه ، وإذا فَضَّل الله بعض الناس على بعض فى الرِّزق فلا يحسبنَّ صاحب الرزق الكثير إذا أنفق أو أعطى غيره أنه ينفق أو يعطى من رزقه . وليعلم أنه ينفق من مال الله ، وأنه لا يعطى شيئاً من عنده ، وإنما هو وسيط أعطى غيره من مال الله كما أخذ لنفسه من مال الله « واللهُ فَضَّلَ بعضكم على بعض فى الرِّزْق فما الذين فُضِّلوا برادِّى رزقِهِمْ عَلَى ما ملكت أيمانهم فهم فيهِ سواء أفبنعمة الله يجحدون » النحل : ٧١ .

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن بعض نصوص القرآن نسبت المال لأفراد البشر من ذلك قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » البقرة : ١٨٨ ، وقوله : « وآتوا اليتامى أموالهم » النساء : ٢ . وقوله : « لتبلوُنّ فى أموالكم وأنفسكم » آل عمران : ١٨٦ . وقوله : « خُذْ من أموالهم صدقة » التوبة : ١٠٣ . وقوله : « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالَهُمْ بأنّ لَهُم الجنَّة » التوبة : ١١١ . وقوله : « وفى أموالِهِمْ حقٌّ للسائلِ والمحروم » الذاريات : ١١ .

وإضافة المال للبشر فى هذه النصوص وغيرها لا تفيد أن البشر ملكوا المال ، وإنما تفيد أنهم ملكوا حق الانتفاع به ، فالمال مال الله كما قدمنا ، وهو مالك كل

شيء ، وإنما سَخّره للبشر لينتفعوا به ، فإذا أضيف إليهم فالإضافة لايقصد منها إلا ملك الانتفاع . والقاعدة أن الإضافة يكفى فيها أدنى الأسباب ، ولقد أضاف القرآن مال السفهاء إلى أوليائهم ، لا لأنهم ملكوا المال ، ولكن لأنهم يملكون حق التصرف فيه بما لهم من حق الولاية ، فقال جلّ شأنه : « ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم التى جعل اللهُ لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفا » النساء : ٥ : فإضافة مال الله للبشر لأن لهم حق الانتفاع به هو من نوع إضافة مال السفهاء إلى أوليائهم ، لأن لهم حق التصرف فيه .

وبعد فإن النصوص لا يصح أن تفسر على ظاهرها ما دام هناك نصوص أخرى تناقضها . والقاعدة أن نصوص القرآن لا يترك بعضها لبعض ، وإنما تؤخذ جملة وتفسر مجتمعة ، والتفسير الصحيح الذى يرفع التناقض يقتضى اعتبار نسبة المال للبشر نسبة مجازية ، وأنه نسب إليهم لوجوده فى أيديهم ، ولما لهم من حق الانتفاع به فى الحدود التى رسمها الله .

ونخلص من ذلك كله بأن ما فى يد البشر من مال على اختلاف أنواعه وأشكاله ومقاديره وما ينتجه هذا المال من أموال إنما هى جميعاً مال الله لا مالهم وملكه لا ملكهم أقامهم عليه واستخلفهم فيه فما يملكون من هذا المال إلا حق الانتفاع به وما يستتبع حق الانتفاع بالمال من استهلاكه والتصرف فيه .

حدود حق البشر فى الانتفاع بمال الله

للبشر حق الانتفاع بما فى أيديهم من مال الله وهو الحق الوحيد الذى لهم على هذا المال . . والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره كما هو الحال فى الأراضى الزراعية والمناجم والمحاجر ، وقد يكون باستهلاك المال كما هو الحال فى الطعام والشراب والثمار ، وقد يكون بالتصرف فى المال تصرفاً شرعياً كالبيع والوصية والهبة .

وللبشر أن ينتفعوا بمال الله على هـذه الوجوه كلها ، ولن يخرجهم عن كونهم منتفعين بالمـال أن لهم حق استهلاك بعضه ، ذلك أن لهم حق الانتفاع فإذا لم يكن الانتفاع ممكناً إلا بالاستهلاك كان الاستهلاك هو عين الانتفاع ، ولقد أباح الله جل شأنه للبشر أن يستهلـكوا من ماله كل ما يقتضى الانتفاع به أن يستهلك ، فأباح لهم استهلاك الطعام والشراب والثمار واللباس والأثاث ، كما أباح لهم استهلاك جميع الطيبات ، وجميع ما تقتضى ظروف حياتهم استهلاكه ، والنصوص فى ذلك صريحة منها قوله جل شأنه: « كلُوا مِمَّا رَزَقَـكُمُ اللهُ حلالًا طيِّباً » المائدة : ١٨ . « كلُوا واشرَبوا من رِزْقِ الله » البقرة : ٦٠ . « يأيُّها الَّذِينَ آمنوا كلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ » البقرة : ١٧٢ . « كلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » الأنعام : ١٤١ « واللهُ جَعلَ لَـكُمْ مِنْ بُيوتِـكُمْ سَكناً وجعلَ لكُمْ مِنْ جُلودِ الأَنعامِ بُيوتاً تَسْتَخِفُّونها يوْمَ ظَعْنِكم ويومَ إقَامَتِكم وَمِنْ أَصْوافِها وأَوْبارِها وأَشْعارِها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعلَ لكم مِمَّا خَلق ظِلالًا وجعلَ لكم منَ الجبالِ أَكْناناً وجعلَ لكم سَرابيلَ تقيكُمُ الحرَّ وسرَابيلَ تقيكم بأسكم كذلك يُتِمُّ نعمَتهُ عليكم لعلكم تسْلِمون » النحل : ٨٠ ، ٨١ . « وآتاكم من كلِّ ما سألتُموه » إبراهيم : ٤٤ . « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتى أَخرَجَ لِعبادِهِ والطيِّبات منَ الرِّزق » . الأعراف

وحق البشر فى الانتفاع بمال الله ليس حقاً مطلقاً ، وإنما هو حق مقيد بقيود ، فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون ، وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط في حدود حاجتهم لهذا المـال ، وبالقدر الذى يكف عنهم الحاجة ويدفعها ، بشرط أن يكون ذلك كله فى حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير ، فليس لهم أن يسرفوا فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وأمور معيشتهم ، وما يجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم ، وعليهم أن يتوسطوا بين الأمرين وأن لا يجاوزوا حدود الاعتدال ، فقد حرم الله عليهم السرف

و بسط اليد فى المال كما حرم عليهم التقتير وقبض اليد عن النفس بما هى محتاجة إليه : « كُلُوا واُشْربُوا وَلا تُسْرِفوا » الأعراف : ٣١ . « كُلُوا مِنْ طَيِّبات ما رَزَقْناكم وَلا تَطْغَوا فيه » طه : ٨١ . « والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بيْنَ ذٰلِكَ قواما » الفرقان : ٦٧ . « وَلا تَجْعل يدَكَ مَغْلُولةً إلى عُنقكَ وَلَا تَبْسُطها كلَّ الْبَسْط » الإسراء : ٢٩ .

و إذا كان للفرد أن يأخذ من مال الله ما يكفى حاجته ، فإن له أيضاً أن يأخذ من هذا المال ما يكفى حاجة أهله الذين تُلزمه نفقتهم كالزوجة والأولاد والأبوين ، وله أيضاً أن يأخذ بعض مال الله لينفقه فى حفظ بقية المال ، وفى استغلاله وتثميره ، وله أن يفعل ذلك كله فى حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير .

ما يترتب على كون المال لله

يترتب على أن المال مال الله النتائج الآتية : —

١ — لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يتملك المال تملكا نهائياً ، ولا يجوز لأحد أن يكون له على المال إلا ملك المنفعة ، لأن حقوق الله ثابتة له جل شأنه ، وليس لأحد من البشر أن يتصرف فيها أو يتنازل عنها حاكما كان أو محكوماً فرداً أو جماعة .

٢ — إن للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن تنظم طريقة الانتفاع بالمال ، إذ المال وإن كان لله إلا أنه جعله لمنفعة الجماعة ، والقاعدة فى الإسلام أن كل ما ينسب من الحقوق لله إنما هو لمنفعة الجماعة وهى التى تشرف عليه دون الأفراد .

٣ — إن للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن ترفع يد مالك المنفعة عن المال إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة ، بشرط أن تعوضه عن ملكية

المنفعة تعويضاً مناسباً ، إذ الإسلام لا يجيز الغصب ولا يحل أخذ المال بغير طيب نفس صاحبه ، كما لا يحل أخذه بالباطل وذلك قول الله تعالى « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ » البقرة : ١٨٨ : وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله » وقوله « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام » .

٤ — إن الإسلام وإن كان يبيح حرية التملك إلى غير حد ، إلا أنه يجيز للجماعة بواسطة ممثليها و باعتبارها القائمة على حقوق الله وتنظيم الانتفاع بها أن تحدد ما يملكه الشخص من مال معين إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة كتحديد الملكية الزراعية بقدر معين أو ملكية أراضى البناء .

ما يترتب على حق البشر فى الانتفاع بمال الله

ويترتب على أن للبشر الانتفاع بمال الله وتملك حق الانتفاع نتائج هى : —

١ — إذا كانت الجماعة قائمة على حق الله وهو ملكية المال ، فليس لها أن تمس ملكية الانتفاع المخصصة للأفراد إلا من وجهة تنظيم حق ملكية الانتفاع وليس لها أن تحرم ملكية الانتفاع التى جعلها الله للأفراد .

٢ — إن ملكية المنفعة تتصل بالعين كما تتصل بالشخص فيجوز لمالك المنفعة أن ينقلها إلى غيره بالبيع والرهن والوصية وغيرها من التصرفات الشرعية ، كما أنها تنتقل عن المالك بوفاته إلى ورثته .

٣ — إن ملكية المنفعة دائمة فى أصلها بالنسبة للأفراد أى إنها غير مقيدة بمدة معينة ، فيصح أن يظل الشىء فى حيازة شخص معين ينتفع به حتى يموت ثم يتوارثه عنه أولاده وأولادهم حتى ينقرضوا كما هو الحال فى الوقف .

٤ — إن ملكية المنفعة إنما جعلت لينتفع بها الفرد بطريق مباشر ، ولتنتفع بها الجماعة من طريق غير مباشر ، فإذا عطل المنتفع المال فلم ينتفع به فقد عطل انتفاع الجماعة ، وكان للجماعة أن ترفع يده عنه بشرط أن تعوضه عنه بما يقابل قيمته .

حقوق الغير فى مال الله

وإذا كان لكل فرد حق الانتفاع بما فى يده من مال الله فى الحدود التى بيناها ، فإن للغير حقوقاً فرضها الله فى هذا المال وأوجب على من فى يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفاً فى مال الله ، وهذه الحقوق هى : —

(١) الزكاة :

وهى فريضة فى مال الله ، فعلى كل فرد فى يده شيء من مال الله أن يخرجها من هذا المال إذا بلغ قدراً معيناً ، ويؤديها إلى الحاكم ليردّها على ذوى الحاجة طبقاً لنصوص القرآن .

والزكاة كالصلاة من مبانى الإسلام ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وأكثر النصوص تجمع بين الصلاة والزكاة ، كقوله تعالى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » البقرة : ٨٣ . وقوله « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ » التوبة : ٥ وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا منى دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله » .

والزكاة فريضة فى المال ، ولذلك تجب على الرجال والنساء والصغار والكبار ، لقوله تعالى « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » التوبة : ١٠٣ . ومقدارها يختلف باختلاف المال ، فقد تصل إلى عشر المال كما فى المستنبت المقتات ، وقد تصل إلى ٢,٥ ٪ من المال كما فى الحلى والنقود ، وقد تكون أقل من ذلك كما فى زكاة الأنعام .

وتجب الزكاة فى كل مال حال عليه الحول ، أى مضى عليه عام فى يد المستخلف عليه ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول » .

(٢) الإنفاق :

وإنفاق المال يعتبر فى الإسلام صفة من الصفات الدالة على الإسلام وعلى الإيمان وعلى طاعة الله والقيام بأمره ، وحينما وصف الله المتقين وصفهم بأنهم : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » البقرة : ٣ . فسوى جل شأنه بين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق ، وجعلها جميعاً علامة على التقوى .

ووصف الله المؤمنين بأنهم هم الذين يخشون ربهم فإذا ذكر وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً على إيمانهم ، وأنهم يعملون ويحسنون عملهم ما استطاعوا ثم يتوكلون بعد ذلك على ربهم ، وأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، وأكد الله لنا أن هذه الأوصاف هى أوصاف المؤمن الحقيقى ، فالإنفاق إذن صفة من صفات المؤمن ، وعلامة على الإيمان الحق « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » الأنفال : ٢ — ٤ .

بل إن الإنفاق يعتبر فى الإسلام أصلا من أصول البر أى الخير ، فلا يتم الخير إلا بالإنفاق ، لقوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ

فى الْبَأْسَاء وَالضرّاء وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولٰئِكَ الذينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون » البقرة : ١٧٧ .

ويلاحظ على نص الآية أولا : أنه جعل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أصلا من أصول البر أى الخير ، وجعل الأعمال الصالحة المترتبة على الإيمان والتى هى نتيجة له أصلا ثانياً للبر أى الخير . فالخير هو مايهدف إليه الإسلام ، والأصول التى يقوم عليها هى الإيمان المجرد ثم إتيان ما يقتضيه الإيمان من الأعمال . ومثل ذلك قوله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون » آل عمران : ١٠٤ ، فالغاية هى الدعوة إلى الخير والوسائل هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويدخل تحتهما كل ما جاء به الإسلام ، ومن ذلك قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات » المائدة : ٤٨ ، فغاية الأديان ليست إلا الخير ، وما تدعو الناس إلا إلى الاستباق فى عمل الخير ، ووسائلها إلى ذلك هى الإيمان بالله ، والعمل طبقاً لما أمر الله .

ويلاحظ على نص الآية ثانياً : أنه جعل الإنفاق على رأس الأعمال الصالحة التى تؤدى إلى الخير وهو غاية الإسلام وهدفه ، كذلك قدم النص الإنفاق على الصلاة والزكاة ، ويكفى هذا دليلا على مكانة الإنفاق فى الإسلام ، ودليلا على أن الإسلام لا يتحقق فى مسلم يمتنع عن الإنفاق .

وقد بين لنا الله جل شأنه أننا لن نصل إلى ما يهدف إليه الإسلام وهو الخير حتى ننفق من أحب أموالنا إلينا وأكرمها علينا ، فقال جل شأنه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » آل عمران : ٩٢ ، ومن أنفق مما يحب هان عليه ما دونه .

ويتبين مما سبق أن غاية الإسلام هى الخير ، وأن وسائله للخير هى الإيمان والأعمال الصالحة ، وأن الإنفاق هو أول الأعمال الصالحة ، وأن الامتناع عن الإنفاق يحول دون الوصول إلى غاية الإسلام وهى الخير ، وإذا كان الإنفاق وسيلة من وسائل الإسلام إلى الخير ونتيجة من نتائج الإيمان بالله ، فإن المسلم الذى يمتنع عن الإنفاق يشهد على نفسه بأنه يعصى الله ، وأنه يعطل الإسلام ، وأنه لم يؤمن بالله حق الإيمان .

أنواع الإنفاق

والإنفاق نوعان : إنفاق الفريضة ، وإنفاق التطوع ، وإنفاق الفريضة نوعان : إنفاق فى سبيل الله ، وإنفاق على ذوى الحاجة .

وإنفاق الفريضة هو ما يجب إنفاقه من المال ، وما للحاكم أن يأخذه ليصرفه فى مصارفه ، رضى ذلك المستخلف على المال أم كرهه ، أما إنفاق التطوع فهو ما ترك للمستخلف أن ينفقه هو دون أن يجبره على إنفاقه أحد .

الإنفاق فى سبيل الله

والإنفاق فى سبيل الله فريضة واجبة ، ويشمل كل ما ينفق لإعلاء كلمة الإسلام ، والدفاع عنه ، ونشر الإسلام بين الناس وإقامة أحكامه ، ومن واجب كل مستخلف على مال الله أن ينفق منه فى هذه السبيل ، ومن حق الحكومة الإسلامية أن تقتطع من الثروات والأموال التى فى يد الأفراد ما تراه كافياً لإعلاء كلمة الله ، ويستوى أن يصرف المال فى الإعداد للعدو أو دفعه أو رفع مستوى المسلمين عامة علمياً أو اجتماعياً أو رياضياً أو نشر الإسلام وإقامة أحكامه بين الناس فكل ذلك إنما هو إنفاق فى سبيل الله ، إذ أن سبيل الله هى طاعته فى كل ما أمر به من جهاد وحكم ومساواة وعدل وغير ذلك .

والإنفاق فى سبيل الله جهاد ، إذ كما يكون الجهاد بالنفس يكون بالمال ويكون بهما معاً ، ولقد أمر الله المسلمين أن ينفروا خفافاً وثقالا وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ، فقال جل شأنه : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » التوبة : ٤١ ، وجعل الله الجهاد بالمال والنفس علامة إيمان الشخص والدليل على صدق هذا الإيمان : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » الحجرات : ١٥ .

ولقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » التوبة : ١١١ ، وجعل هذا البيع التجارة الرابحة المنجية « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » الصف : ١٠ ، ١١ .

واعتبر الامتناع عن الإنفاق فى سبيل الله إلقاء بالنفس فى الهلكة « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٥ . فإذا لم يبذل المسلمون فى سبيل الله ، وتأييد دينه ، وإعلاء كلمته كل ما يستطيعون من قوة ومال فقد أهلكوا أنفسهم ، ومكنوا لأعدائهم من رقابهم ، وروى عن أبى أيوب الأنصارى أنه قال : إن هذه الآية نزلت فينا معشر الأنصار ، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه . قال بعضنا لبعض سراً : إن أموالنا قد ضاعت ، إن الله قد أعز الإسلام ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله الآية يرد علينا ما قلنا ، فالتهلكة هى الإقامة على الأموال وإصلاحها والضن بها أن تنفق فى سبيل الله .

وإذا كان الله جل شأنه قد فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله على المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم فقط ، فإنه وعد كلا الفريقين الحسنى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » النساء : ٩٥ . فعلى كل من كان فى يده شىء من مال الله أن ينفق منه فى سبيله ويجاهد به لإعلاء كلمة الله وحياطة الإسلام ، ومن فاته الجهاد بنفسه فلا يفوتنه الجهاد بالمال ، فإن من فاته الجهاد بالنفس والمال وهو قادر عليهما فقد فاتته رحمة الله وقدم نفسه لنار جهنم ، ولقد كره البعض فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله فوعدهم الله نار جهنم ، ومنع رسوله أن يصلى على من مات منهم أو يقوم على قبره « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . . . ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » التوبة : ٨١ ، ٨٤ .

ولقد أعد الله للذين يكنزون المال ولا ينفقونه فى سبيل الله عذاباً أليماً فقال جل شأنه « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وتلك هى التهلكة التى يلقى الناس بأنفسهم إليها حين يبخلون ولا ينفقون فى سبيل الله .

وكل مسلم مطالب بالإنفاق مادام يجد ماينفقه فى سبيل الله ، فإذا لم يجد فما عليه من حرج ، ويكفيه النصح لله ولرسوله ولجماعة المسلمين ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يؤاخذ الله محسناً أحسن عمله أو قوله بقدر ما يستطيع « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » التوبة : ٩١ .

الإنفاق على ذوى الحاجة

يدخل الإنفاق على ذوى الحاجة فى الجماعة الإسلامية تحت الإنفاق فى سبيل الله ، لأن سبيل الله هى طاعته ، فكل إنفاق يطاع فيه الله هو إنفاق فى سبيل الله ، ولكننا أفردنا للانفاق على ذوى الحاجة مكاناً خاصاً وعنواناً مستقلا لأن الله جل شأنه خصه بنصوص خاصة من ذلك قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب[1] » البقرة : ١٧٧ . وقوله « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » الإسراء : ٢٩ . وقوله « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » النساء : ٣٦ . وقوله « ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » المدثر : ٤٤ . وقوله : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً » الإنسان : ٨ وقوله « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » البقرة : ٢١٥ . « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » البقرة : ٢٧٣ . وقوله « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » الذاريات : ١١

والإنفاق على ذوى الحاجة فريضة افترضها الله فى المال فليس لمستخلف على

---

(١) المساكين هم الفقراء المتعففون وقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم المسكين بقوله : « ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس » .

وابن السبيل هو المنقطع فى السفر لايتصل بأهل ولا قرابة ، والسائلون هم من تدفعهم الحاجة إلى تكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا عند الضرورة . وفى الرقاب أى فى تحريرها وعتقها كافتداء الأسرى وابتياع الرقيق وعتقه .

مال الله أن يمنعها ، وللحكومات الحق فى أن تأخذ من أموال الأغنياء مايكفى حاجة الفقراء ، فإن لم تفعل فقد عصت أمر الله وحرمت ذوى الحاجة حقوقهم التى فرضها لهم الله .

ولا يشترط أن يكون الفقراء وذوو الحاجة معدمين لايملكون شيئاً أصلا حتى يستحقوا الإنفاق عليهم ، وإنما الشرط أن لا يكون لديهم ما يكفى حاجتهم ، فكل من كان إيراده لا يكفى حاجته فهو من ذوى الحاجة وعلى الحكومة الإسلامية أن تأخذ من فضول أموال الأغنياء ما يرد حاجة ذوى الحاجة .

والإنفاق على ذوى الحاجة يعبر عنه بالصدقة كما يعبر عن الزكاة بالصدقة ، وذوو الحاجة الذين يجب لهم الإنفاق هم تقريباً الذين فرضت لهم الزكاة فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله» البقرة : ٦٠ . وقد دعا هذا إلى اشتباه الأمر على البعض ، فظن أن ليس فى المال لذوى الحاجة سوى الزكاة ، وهذا خطأ لاشك فيه ، لأن الزكاة ليست هى كل ما فى المال من حق ، وإنما هى الحق الأول لذوى الحاجة ، فإن كفتهم فبها ، وإلا فقد وجب الإنفاق فريضة من الله حتى تكف الحاجة عن ذوى الحاجة .

وليس أدل على صحة ما نقول من أن القرآن فرق بين الإنفاق والزكاة فى نص واحد ، واعتبر كليهما من الأعمال التى يقتضيها الإيمان ويقوم من أجلها الإسلام ، وذلك قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة » البقرة : ١٧٧ . فجاء النص صريحاً فى وجوب الإنفاق وفى وجوب الزكاة . والفصل بين الإنفاق والزكاة بالصلاة دليل على الاختلاف بين الإنفاق والزكاة ،

والنص على كل من الإنفاق والزكاة على حدة فى آية واحدة قاطع بأن كليهما يختلف عن الآخر وأنهما فريضتان مختلفتان ، ومن ادعى أن الزكاة نسخت الإنفاق كفريضة فإنه يدعى مالا حجة له عليه ، فالزكاة فرضت فى مكة والآية التى سبق ذكرها مدنية ، فكيف تنسخ الفريضة السابقة الفريضة اللاحقة ؟ بل كيف ينسخ بعض النص الواحد بعضه الآخر ؟

ولقد جاءت السنة بنفس ما جاء به القرآن من المخالفة بين الإنفاق والزكاة وجعلهما فريضتين مختلفتين ، فيروى عن أنس بن مالك أن رجلا من تميم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الزكاة فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل » ففرق الرسول بين الزكاة وبين صلة الأقارب وإعطاء المساكين والجيران والسائلين حقوقهم التى أوجبها الله لهم بعد الزكاة . وروت فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فى المال لحقا سوى الزكاة ثم تلا قوله تعالى ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب الخ الآية » .

فالإنفاق إذن فريضة غير فريضة الزكاة ، وقد افترضه الله لسد ما لم تسده الزكاة من حاجات ، ومن الممكن أن تسد فريضة الزكاة حاجة ذوى الحاجة كما حدث فى عهود الإسلام الأولى ، وقد تزيد عن حاجتهم كما حدث فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد كانت الدولة لا تجد من المحتاجين من تنفق عليهم بعض حصيلة الزكاة . فإذا لم تقم فريضة الزكاة بسد حاجة ذوى الحاجة ففريضة الإنفاق تقوم بما لم تتسع له فريضة الزكاة .

إنفاق التطوع

هذا النوع من الإنفاق يأتى بعد أداء إنفاق الفريضة بنوعيه ، وهو متروك لاختيار المنفق إن شاء أنفق و إن شاء امتنع ، ولذلك سميناه إنفاق التطوع و يسمى صدقة التطوع ، فإن أنفق فله أجر الإنفاق و إن لم ينفق لم يأثم .

ولقد حض الإسلام على الإنفاق وحببه إلى الناس وأعد لهم عليه أفضل الجزاء « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة ٢٦١ : وأعلمهم أن ماينفقون من خير فإنما يعود عليهم « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » البقرة ٢٧٢ : ودعاهم إلى أن ينفقوا من أموالهم فى كل وقت من أوقات الليل والنهار وفى السر والعلانية ، وضمن لهم الأجر الجزيل والجزاء الأوفى « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » البقرة ٢٧٤ .

وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تنهج نهج القرآن فى الحض على الإنفاق فمما روى عنه قوله « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » وقوله « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » وقوله : « ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب — ولا يقبل الله إلا طيباً — إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد » وقوله « كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » .

حد الإنفاق

جعل الإسلام للإنفاق حدين : الحد العادى ، وحد الضرورة سواء كان الإنفاق فريضة أو تطوعاً .

فأما الحد العادى للإنفاق فيمتد إلى كل ما يزيد عن حاجة المستخلف على

المال فما زاد على حاجته فهو محل للإنفاق أيا كان مقداره ، والأصل فى ذلك قول الله جل شأنه « يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو » البقرة ٢١٩ : وقوله « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . الأعراف ١٩٩ : والعفو هو الفضل أي ما عفت عنه الحاجة وما فضل بعد سدها .

وروى فى أسباب نزول الآية الأولى أن نفراً من الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حد الإنفاق فأجيبوا على لسان الوحى أن ينفقوا العفو أي ما زاد عن حاجتهم .

ولقد حاول بعض المفسرين أن يفسر العفو بمعنى آخر ، فقال إن العفو نقيض الجهد فيكون معنى الآية أنهم ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلا عن حاجتهم وهو تفسير تكلف يخالف ظاهر النص ويخالف ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قوله « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف » والفضل ما زاد عن الحاجة ، والكفاف ما كف عن الحاجة ولا يزيد عن قدرها . وقول الرسول « طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » وقوله « الأيدى ثلاثه ، فيد الله العليا ويد المعطى التى تليها ، ويد السائل السفلى ، فاعط الفضل ولا تعجز عن نفسك » فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر العفو بأنه الفضل وما زاد عن الحاجة ، ويدعو إلى إنفاقه جميعاً ويحذر من إمساكه ، ويقول فى صراحة إنه لا ملام على الاحتفاظ بما يكفى الحاجة ، وإنما الملام على مازاد عن ذلك .

ولقد حدد بعضهم حاجة المستخلف على المال بالحاجة اليومية ، وحددها البعض بالحاجة الشهرية وحددها آخرون بحاجة السنة ، وحجتهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ادخر لأهله قوت سنة .

وإذا كان كل مازاد عن حاجة المستخلف على المال محلاً للإنفاق فينبغى أن

نعلم أن إنفاق هذا الزائد لا يجب إلا إذا استوجب الإنفاق حاجة الغير إليه ، فإذا لم يكن بالغير حاجة إلى الفضل كان لمن فى يده المال أن ينفق منه تطوعاً ماشاء ولو أتى على كل الفضل ، أما إذا كان بالغير حاجة إلى الفضل فليس لمن فى يده المال أن يأخذ من الفضل شيئا وإلا كان آخذاً غير حقه ، وهذا ما فهمه أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله حين سمعه يقول « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له » قال أبو سعيد فذكر — أى الرسول — من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

وللحكومة الإسلامية بعد ذلك أن تأخذ من فضول أموال الأغنياء فتردها على الفقراء ولو لم يكونوا بحاجة إليها إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة تحقيقا لقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » المائدة ٣ : وهذا هو ما رآه عمر رضى الله عنه قبيل وفاته ، فقد أثر عنه أنه قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء ، وكان عمر يرى هذا بالرغم من أنه فرض لكل شخص فى بيت المال حتى الأطفال ، فلم تكن حاجة الغير إلى فضول أموال الأغنياء هى التى تدعو عمر إلى القول برد هذه الفضول للفقراء ، وإنما رأى عمر أن ثروات الأغنياء تضخمت وخشى عليهم الترف والبطر ، وخشى على الفقراء الحسد والفتنة ، فود لو حسم الأمر كله برد فضول أموال الأغنياء على الفقراء ، ولو طال عمره وفعل هذا لتغير تاريخ الإسلام .

وحاجة الغير لفضول الأموال لا تتحدد فقط بما يكفى حاجة الأفراد متفرقين ، وإنما تتحدد أيضاً بما يكف حاجتهم مجتمعين ، أو بتعبير آخر تتحدد الحاجة إلى فضول الأموال بما يسد حاجة الجماعة بعد حاجة الأفراد ، وحاجات الجماعة لا تنتهى ولا حد لإشباعها ، فكلما تقدمت الجماعة وقويت زادت حاجتها إلى التقدم والقوة لتحتفظ

بمكانتها بين الجماعات ، وكلما أقامت الجماعة أمر الله تجددت حاجتها إلى إقامة أمر الله لمواجهة المستحدث من الفساد والعصيان .

وإذن ففضول الأموال رهن بما يسد حاجة الأفراد وحاجة الجماعة ، فليس لمن فى يدهم هذه الفضول أن ينفقوا منها شيئاً على أنفسهم وإلا كانوا آخذين غير حقهم وليس لهم أن ينفقوا منها تطوعاً إلا بعد أن يأخذ الأفرد والجماعة ما يجب لهم فيها ، ولو أن إنفاق التطوع يعود على الغير بالنفع ، ذلك أن صدقة التطوع تترك لمشيئة المتطوع ، يوزعها كيف يشاء ، أما إنفاق الفريضة فيجب أن يصيب من لهم الحق فى المال دون غيرهم .

أما حد الضرورة فى الإنفاق فإنه يمتد من الفضول إلى نفس الجزء المخصص لسد حاجة المستخلف على المال ، فيصبح للغير من الأفراد وللجماعة الحق فى أخذ ما تدعوا الضرورة لأخذه من هذا الجزء قل المأخوذ أو كثر لسد بعض حاجة الآخرين ولتوفير المال الضرورى لصيانة أمن الدولة الخارجى والداخلى .

ولا ينتقل حد الإنفاق إلى الجزء المخصص لسد حاجة المستخلف على المال إلا لضرورات تقتضى هذا الانتقال . ونستطيع أن نضرب إلى هذه الضرورات أمثلة حدثت فى مطلع العهد الإسلامى .

وأول هذه الأمثلة كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أمر المسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة فهجروا مكة متسللين تاركين أموالهم نهباً لمشركى قريش ودخلوا المدينة وأكثرهم لا يملك قوت يومه ، وما ترك المهاجرون كل أموالهم إلا استجابة لأمر الله ، وجهاداً بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » الحشر : ٨ . فلما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، وأنزل المهاجرين على الأنصار يشاركونهم

فى كل ما يملكون ، ويقاسمونهم القليل والكثير ، ولم تكن أموال الأنصار بالتى تتسع لهم وللمهاجرين ولكنهم رحبوا بالمهاجرين وآثروهم على أنفسهم وهم فى أشد الحاجة إلى ما يؤثرون به غيرهم ، وما فعلوا ذلك إلا استجابة لله وجهاداً فى سبيله فاستحقوا بذلك قول الله فيهم : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » الحشر : ٥ .

هذا هو المثل الأول يبين لنا أن مصلحة الإسلام اقتضت أن يضحى المهاجرون بكل أموالهم فضحوا بها طيبة نفوسهم ، وأن المصلحة اقتضت أن يضحى الأنصار بالكثير مما هم فى أشد الحاجة إليه فنزلوا على أمر الله وآثروا المهاجرين على أنفسهم .

أما المثل الثانى فكان فى عهد عمر رضى الله عنه حين حدثت المجاعة فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة ، واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها ، فآلى عمر على نفسه أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيي الناس ، وكان يقول : « لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم » ، وما قال ذلك إلا بعد أن كتب إلى أمراء الأمصار يستمدهم ، فكان أول من قدم إليه أبو عبيدة بن الجراح فى أربعة آلاف راحلة من طعام ، وبعث عمرو بن العاص الطعام فى السفن وعلى الإبل ، فبعث عشرين سفينة وألف بعير محملة بالدقيق ، كما بعث خمسة آلاف كساء ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير محملة كما بعث ثلاثة آلاف عباءة ، وبعث سعد ابن أبى وقاص ألف بعير محملة بالدقيق ، وكل ذلك وزع على المحتاجين والفقراء ولكنه لم يكد يسد حاجتهم فرأى عمر أن يدخل على أهل كل بيت عدتهم من المحتاجين ليقاسموهم طعامهم ويعيش الجميع على أنصاف بطونهم .

وقد استلهم عمر فى هذا الاتجاه روح الإسلام وتأسى بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار و إنزال المهاجرين على الأنصار حتى يسر الله للمهاجرين وأذهب عنهم الفاقة .

أما المثل الثالث فبطله أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه كان هو وثلثمائة من صحابة الرسول فى سفر ففنيت أزواد بعضهم فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مزودين وجعل يقوتهم إياها على السواء .

وهكذا يحمل الإسلام الناس فى الأزمات والمجاعات وعند الضرورات أن يسع بعضهم بعضاً فيما هم فى حاجة إليه وفيما يقيم أودهم ويحفظ حياتهم ، وفى هذا روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب (إلى الطعام) بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » .

والأصل فى ذلك كله أن المال مال الله ، وأن الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاونوا على البرّ والتقوى : « وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » المائدة : ٣ ، كما أن الإسلام يقيم المجتمع الإسلامى على أساس التضامن الاجتماعى ، فيجعل فى أموال الأغنياء حقاً للفقراء : « وفى أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم » الذاريات : ١٩ : » وآتِ ذا القُرْبَى حقهُ والمسكين وابن السبيل » حتى ليبرأ الله من كل جماعة أصبح فيهم فرد جائعاً ، وذلك قول رسول الله : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » . ويجعل الإسلام المسلمين بمثابة البنيان يشد بعضه بعضا ، ويقيم بعضه البعض الآخر ، بل يجعل المسلمين جميعاً جسداً واحداً إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضهُ بعضا » ويقول : « مثَلُ المؤمنينَ فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منهُ عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويوجب الإسلام على كل مسلم أن يرحم أخاه المسلم ، وأن لا يظلمه ولا يسلمه ، وذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » وقوله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » فمن كان له فضل مال ورأى أخاه جائعاً فلم يغثه فما رحمه بلاشك ، ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه لا جدال فى ذلك .

بحث محدود

هذه هى خلاصة نظرية الإسلام فى ملكية المال ، وتلك هى الأصول التى تقوم عليها ، وما نريد أن نتعرض لما لا محل له فى هذا الكتاب ، وما تعرضنا لنظرية المال إلا بقدر ما نستبين حق الحكومات على ما فى يد الأفراد من مال وحق الأفراد فى هذا المال ، ونرجو أن يوفقنا الله لوضع كتاب خاص نبسط فيه النظرية وتطبيقاتها وما يتصل بها من نظريات اقتصادية إسلامية ، وما يمكن أن يترتب على هذه النظريات فى المجتمع الإسلامى .

لله الحكم والأمر

لمن الحكم ؟

هذا سؤال لا تصعب الإجابة عليه بعد أن علمنا أن الله هو خالق الكون ومالكه ، وأنه استعمر البشر واستخلفهم فى الأرض ، وأمرهم أن يتبعوا هداه ، وأن لا يستجيبوا لغيره ، فكل ذى منطق سليم لا يستطيع أن يقول بعد أن علم هذا إلا أن الحكم لله ، وأنه جلَّ شأنه هو الحاكم فى هذا الكون ما دام هو خالقه ومالكه ، وأن على البشر أن يتحاكموا إلى ما أنزل ويحكموا به ، لأنهم من وجه قد استخلفوا فى الأرض استخلافاً مقيداً باتباع هدى الله ، ولأنهم من وجه آخر خلفاء الله فى الأرض ، وليس للخليفة أن يخرج على أمر من استخلفه .

وقد جاءت نصوص القرآن مؤيدة لهذا المنطق البشرى السليم ، فهى تلزم البشر باتباع ما جاء من عند الله ، وتحرم عليهم تحريماً قاطعاً اتباع ما يخالفه : « اتَّبع ما أُوحِيَ إليك من ربك لا إلهَ إلاّ هُو وَأَعرِض عن المشركين » الأنعام : ١٠٦ . « اتبعوا ما أُنزِلَ إليكم من ربكم وَلا تتَّبعوا من دُونِهِ أولياء » الأعراف : ٣ .

وقد علمنا الله أن الحق شيء واحد لا يتعدد ، وأنه ليس فى الدنيا إلا حقٌ أو باطل ، وليس بعد الحق إلا الضلال « فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال فأنى تصرَفون » يونس : ٣٢ . كما علمنا أنه أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق « إنا أرسلناك بالحقّ بشيراً وَنذيراً » البقرة : ١١٩ . وأن الكتاب الذى أنزل عليه جاء بالحق : « نزَّلَ عليك الكِتاب بالحق » آل عمران : ٣ : « إنا أَنزلْنا إليك الكِتاب بالحق» النساء : ١٠٥ .

وإذا كان الله قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق : « هو الذى أرسل رسوله

بالهدَى ودين الحقّ » التوبة : ٣٣ . فإن الذين يستجيبون للرسول ولما جاء به إنما يستجيبون للحق ويتبعون الهدى .

أما الذين لا يستجيبون للرّسول ولما جاء به من الحق فقد علمنا الله أنهم يستجيبون للضلال ويتبعون أهواءهم ، وأن أعظم الناس ضلالا هو من اتبع هواه ولم يهتد بهدى الله : « فإن لم يَسْتَجيبوا لكَ فاعلَم أنما يتبعون أهْوَاءَهم وَمن أضَل مِمَّنِ اتَّبَع هواهُ بغير هدًى من الله » القصص : ٥٠ .

وقد جعل الله ما أنزله على رسوله شريعة لنا ، وأوجب علينا أن نتبعها ونلتزم حدودها ، ونهانا عن اتباع تشريعات الناس وقوانينهم ، فما هى إلا أهواؤهم وضلالاتهم يصوغونها تشريعات وقوانين يضلون بها البشر ويصرفونهم عن شريعة الله ، وهم مهما تعلموا وعلموا لا يعلمون شيئاً فى جنب علم الله الذى أحاط بكل شىء علماً ، والذى يعلم ما فيه هداية البشر وخيرهم : « ثُمَّ جَعلناكَ عَلَى شريعةٍ من الأمر فاتبعها وَلا تتبع أهواءَ الذين لا يعلَمون » الجاثية : ١٨ .

والشريعة التى أنزلها الله على رسوله وألزمنا اتباعها والعمل بها ليست إلا كتاب الله الذى يقرأه المسلمون ويستمعون إليه فى كل صباح ومساء « وهذا كِتابٌ أنزلْناه مباركٌ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » الأنعام : ١٥٥ : وهذا الكتاب هو القرآن الكريم : « كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلَمون » فصلت : ٣ .

ولقد كان فى النصوص السابقة ما يكفى للقطع بأن الحكم فى البلاد الإسلامية يجب أن يكون طبقاً للشريعة الإسلامية ، لأن اتباع ما أنزل الله يقتضى أن يكون الحكم بما أنزل الله ، وأن يكون الحكام قائمين على أمر الله ، ذلك أنه إذا استطاع البعض أن يتبعوا أمر الله فيما يتصل بذواتهم وفيما هو فى أيديهم فما يستطيعون أن يتبعوا أمر الله فيما يتصل بغيرهم وفيما هو فى أيدى الغير ، وإذا استطاعوا أن يتبعوا أمر الله عند الاتفاق فما يستطيعون أن يتبعوه عند الاختلاف ، وإذا

استطاعوا أن يتبعوا أمر الله فيما هو للأفراد فكيف يستطيعون أن يتبعوه فيما هو للحكام إذا لم يكن الحكام مقيدين باتباع ما أنزل الله ؟

وكان يكفى أن نعلم أن الله أوجب علينا عند التنازع والاختلاف أن نتحاكم إلى ما أنزل الله ونحكم فى المتنازع عليه والمختلف فيه بحكم الله « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » النساء : ٥٩ : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله » الشورى : ١٠ : كان يكفى أن نعلم هذا لنقطع بأن الحكم لله ، وأن الحكام والمحكومين فى كل بلد إسلامى يجب أن يتقيدوا فى كل تصرفاتهم واتجاهاتهم باتباع ما أنزل الله ، وأن يجعلوا دستورهم الأعلى كتاب الله .

ولكن الله جلّ شأنه ، وهو أعلم بالإنسان ، و بأنه أكثر شىء جدلا جاءنا بنصوص لاسبيل فيها إلى جدال أو استنتاج ، تقضى أن الحكم لله فى الدنيا وفى الآخرة «هو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم و إليه ترجعون» القصص : ٧٠ : وتبين لنا أن الله لم يرسل الرسل إلا مبشرين ومنذرين ، ولم ينزل الكتب إلا ليتخذها الناس دستوراً فى حياتهم الدنيا ؛ يحكِّمونها و يحكمون بمقتضاها فى كل شئونهم « كان الناس أمة واحدة فَبعث الله النبيين مبشِّرِين وَمنذرِين وَأَنزل معهم الْكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » البقرة : ٢١٣ .

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون دستور البشرية وقانونها الأعلى ، وليقضى الرسول بين الناس على مقتضى أحكامه كما علمه الله « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » النساء : ١٠٥ .

ونعرف أن الله جل شأنه نفى الإيمان عن العباد وأقسم بنفسه على ذلك حتى يحكموا الرسول فيما يشجر بينهم ليحكم فيه بحكم الله ، ولم يكتف الله تعالى فى إثبات الإيمان لهم بهذا التحكيم المجرد بل اشترط لاعتبارهم مؤمنين أن ينتفى عن صدورهم

الحرج والضيق من قضاء الرسول وحكمه ، وأن يسلموا تسليما وينقادوا انقياداً لما حكم به ، ولن يحكم إلا بما أنزل الله وبما أراه إياه « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » النساء : ٦٥ .

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله أمر أن يتحاكم الناس إلى ما أنزله على رسوله ويحكموا به ، وأنه تعالى حذر من اتباع الأهواء والحكم بها ، وأمر أن يكون الحكم كله مطابقاً لما أوحى به ، كما حذر الحاكم من أن يترك بعض ما أنزل الله أو أن يُفتن عنه « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق » المائدة : ٤٨ . « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » المائدة : ٤٩ . « وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً وَلَئِنِ اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » الرعد : ٣٧.

ومن هذه النصوص نعرف أن الله جعل الحكم بما أنزله أحسن حكم وأفضله ، وأنه نسب الحكم بما أنزل إلى نفسه فجعله حكم الله وأنه جعل الحكم بما عداه حكما جاهليا يقوم على الباطل ، وأنه وصف من يبتغى غير حكم الله بأنه يبغى حكم الجاهلية القائم على الأهواء والضلال « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » المائدة : ٥٠ .

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله حرم الحكم بغير ما أنزل ، كما حرم عليهم الكفر والظلم والفسوق والعصيان ، وجعل من لم يحكم بما أنزل الله كافراً وظالماً وفاسقاً ، فقال جل شأنه « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » المائدة : ٤٤ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » المائدة : ٤٥ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » المائدة : ٤٧ .

ولقد عبر القرآن عن الكفر بلفظ الظلم ، من ذلك قوله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » لقمان : ١٣ وقوله « والكافرون هم الظالمون » البقرة : ٢٥٤ وقوله

« وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » العنكبوت : ٤٩ كذلك عبر القرآن عن الكفر والظلم بالفسق من ذلك قوله تعالى « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفرُ بها إلا الفاسقون » البقرة : ٩٩ . وقوله « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » التوبة : ٨٤ . وقوله « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ . وقوله « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » البقرة : ٥٩ . وقوله « وأخذنا الذين ظلموا بعذابَ بئيس بما كانوا يفسقون » الأعراف : ١٩٥ .

وإذا كان الظلم والفسق بمعنى الكفر فيكون فِسْقُ من لم يحكم بما أنزل الله وظلمه هو الكفر ، ويكون من لم يحكم بما أنزل الله كافراً فى كل الأحوال بنص القرآن .

ولكن بعض المفسرين يفسرون الظلم بالانحراف عن الحق ، ويفسرون الفسق بالعصيان ، ويجمعون بين الآيات الثلاث فى التفسير ، فيرون أن من يستحدث من المسلمين أحكاماً غير ما أنزل الله ويترك بالحكم بها كل أو بعض ما أنزل الله من غير تأويل يعتقد صحته ، فإنه يصدق عليه ما قاله الله ، كل بحسب حاله ، فمن أعرض عما أنزل الله لأنه يفضل عليه غيره من أوضاع البشر فهو كافر قطعاً ، ومن لم يحكم به لعلة أخرى غير الجحود والنكران فهو ظالم إن كان فى حكمه مضيعاً لحق أو تاركا لعدل أو مساواة ، وإلا فهو فاسق .

الحكم من طبيعة الإسلام

هذه بعض نصوص القرآن التى تعرضت للحكم ، وليس بعد ما ذكرنا حجة لمحتج ولا سبيل لجدال ، فليعرف المسلمون أحكام دينهم ونصوص شريعتهم ، ثم ليأخذوا عن بينة وليدعوا عن بينة ، أما أن ينطلقوا وراء تلاميذ المبشرين وأذناب المستعمرين ويدعون مثلهم أن الإسلام لا علاقة له بالحكم ، ولم ترد فيه نصوص عن

الحكم فذلك هو الجهل المطبق والجدل المنكر ، وأى جهل أشد من جهل رجل يدعى لنفسه صفة لا يعرف ماهيتها ، فيدعى لنفسه الإسلام وهو يجهل حقيقة الإسلام ، وأى جدل أنكر من جدال جاهل يحتج على الناس بجهله ، ويريد منهم أن ينكروا ماعلموه لأنه يجهله أو لا يريد أن يتعلمه !

إن الإسلام يلزم الناس باتباع ما أنزل الله ويوجب عليهم أن يتحاكموا إلى ما جاء من عند الله ويحكموا به وحده دون غيره ، وليس لذلك معنى إلا أن الحكم هو الأصل الجامع فى الإسلام ، والدعامة الأولى التى يقوم عليها الإسلام .

إن كل من له إلمام بالإسلام يعلم حق العلم أن الحكم فى الإسلام تقضى به طبيعة الإسلام أكثر مما تقضى به نصوص القرآن ، ففى طبيعة الإسلام أن يسيطر على الأفراد والجماعات ويوجههم ويحكم تصرفاتهم ، وفى طبيعة الإسلام أن يعلو ولا يعلى عليه ، وأن يفرض حكمه على الدول ، وأن يبسط سلطانه على العالم كله .

إن الإسلام ليس عقيدة فقط ولكنه عقيدة ونظام ، وليس ديناً فحسب ولكنه دين ودولة ، ومن المؤلم حقاً أن يجهل أكثر المسلمين ذلك لأنهم يجهلون كل شىء عن حقيقة الإسلام ، ولا يعلمون عنه إلا أنه عبادات يتلقونها عن طريق التقليد والمحاكاة .

الإسلام عقيدة ونظام ـ

والإسلام عقيدة ومبدأ مافى ذلك شك ولكنه ما كان عقيدة تعتقد ومبدأ يعتنق إلا بعد أن استوى نظاماً دقيقاً شاملا ينظم كل شأن من شئون النفس البشرية ، وينظم كل ما تحيط به النفوس من المعانى وما تدركه من المحسوسات ، سواء اتصلت بالأفراد أو الجماعات ، وسواء اتصلت بدنيانا التى نعيش فيها أو بالحياة الأخرى التى نرجوها حياة طيبة .

والإسلام كعقيدة هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكنه كنظام يسيطر على الإنسان سيطرة تامة ويرسم له منهاجه فى الحياة وهدفه منها ، كما يرسم له طرائق العمل التى تؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

الإسلام كنظام يسيطر على المسلم فى كل حركاته وسكناته ، يسيطر عليه فى تفكيره ونيته ، وفى قوله وعمله ، يسيطر عليه فى سره وجهره وفى خلوته وجلوته ، يسيطر عليه فى قيامه وقعوده وفى نومه ويقظته ، يسيطر عليه فى طعامه وشرابه وفى ملبسه وحليته ، يسيطر عليه فى بيعه وشرائه وفى تصرفاته ومعاملاته ، يسيطر عليه فى جده ولهوه وفى فرحه وحزنه وفى رضاه وغضبه ، يسيطر عليه فى بأسائه ونعمته وفى مرضه وصحته وفى ضعفه وقوته ، يسيطر عليه غنياً وفقيراً صغيراً وكبيراً عظيما وحقيراً ، يسيطر عليه فى بنيه وأهله وفى صداقته وعداوته وفى سلمه وحربه ، يسيطر عليه فرداً وفى جماعة وحاكما ومحكوماً ومالكا وصعلوكا ، وليس ثمة تصرف يتصوره العقل أو حال يكون عليها الإنسان إلا سيطر فيها الإسلام على المسلم ووجهه الوجهة التى رسمها .

والذين يظنون أن الإسلام عقيدة وليس نظاماً إنما هم جهال لا يعلمون من الإسلام شيئاً ، أو هم أغبياء لا يستطيعون أن يفقهوا حقيقة الإسلام ، فالإسلام فى حقيقته صبغة يصبغ الله بها عباده المؤمنين « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » البقرة : ١٣٨ . ولا يكون المسلم مسلماً إلا إذا اصطبغ بصبغة الإسلام ، ولون نفسه وأهله وتصرفاته وما يحيط به باللون الإسلامى الخالص .

وأجهل من هؤلاء وأشد غباء من يظنون أن مصلحة المسلمين فى أن يحافظوا على الإسلام عقيدة وينبذوه نظاماً ، ذلك أن العقائد والمبادىء الإسلامية لا يمكن أن تعيش وتنتشر إلا فى ظل النظام الإسلامى الذى تكفل بوضعه الخلاق العليم .

ولست أدرى كيف يؤمن هؤلاء بالإسلام عقيدة ولا يؤمنون به نظاماً ، أتراه

عقيدة من عند الله ، ونظاماً من عند غير الله ؟ « قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » النساء : ٧٨ .

إن الله الذى جعل الإسلام ديناً هو الذى جعله عقيدة ونظاماً ، وإن الله ليأبى على الناس أن يبتغوا لأنفسهم ديناً غير هذا الدين « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » آل عمران : ٨٥ .

ولقد أكمل الله الدين الإسلامى وأتم بإكماله نعمته على الخلق ورضيه ديناً للناس فما يجوز لهم أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، وما يجوز لهم أن يرضوا لأنفسهم غير مارضيه الله لهم « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » المائدة : ٣ .

وإذا كان الله جل شأنه قد اختار الإسلام ديناً ورضيه للناس عقيدة ونظاماً ، فكيف يكون لمؤمن أن يختار وقد حرم الله عليه الاختيار « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب : ٣٦ .

أفلا يعلم هؤلاء أن أحكام الإسلام لا تتجزأ ولا تقبل الانفصال ، وأن نصوصه تمنع من العمل ببعضها وإهمال البعض الآخر ، كما تمنع من الإيمان ببعضها والكفر ببعض ، وأن الله جل شأنه توعد من يفعل ذلك بالخزى فى الحياة الدنيا وبالعذاب الشديد فى الآخرة « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » البقرة : ٨٥

ولقد تمنى قوم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يترك الرسول بعض ما أنزل الله ليحكم بما يتفق مع أهوائهم ، فنزل الوحى يأمر الرسول بأن يتمسك بما أنزل الله ، ويحذره من اتباع أهواء هؤلاء الفساق ، ويعلمه أن تحكيم الأهواء هو حكم الجاهلية ، وأن أفضل حكم وأحسنه هو ما اختاره الله لعباده « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله

إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » المائدة : ٤٩ — ٥٠ .

إن الذين يريدون أن يفصلوا بين العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى إنما هم أعداء الإسلام عن عمد أو جهل ، فالنظام الإسلامى أشبه ما يكون بالآلة التى تنتج الكهرباء والعقيدة الإسلامية هى النور الذى تعمل الآلة لإنتاجه ، فإذا عطلت الآلة انقطع النور وانتهى الإسلام .

إن الدين الإسلامى يمتاز بأنه استطاع أن يُوَحِّدَ بين الأجناس والألوان والأمم، وأن يوجههم جميعاً وجهة واحدة ، وأن يحملهم على نهج واحد وغاية واحدة ، وما استطاع الدين الإسلامى أن يصل لهذا إلا لأنه عقيدة ونظام .

ولقد جاءنا الإسلام بعقائد معينة ولكنه لم يأتنا بها مجردة ، وإنما أتى معها بالنظام الذى تقوم عليه وتحيا به ، وألزمنا أتباعه والتزامه ، وهو نظام دقيق من التربية والتوجيه ، يشمل كل شىء كما قدمنا ، ويتدخل فى كل حالة من حالات الإنسان ، وينتقل بالفرد من مرحلة إلى مرحلة حتى ينتهى به إلى مرحلة التخلى عن أنانيته وأهوائه ، ويصل به إلى مرحلة التجرد لخدمة المبادىء القرآنية والفناء فيها .

وهكذا يربى الإسلام المسلمين تربية واحدة ، ويوجههم توجيها موحدا ، ويجردهم لخدمة أهداف واحدة ، فما يطلبه أحدهم هو ما يطلبه الآخر ، وما تعمل له مجموعة منهم هو نفسه ما تعمل له كل مجموعة أخرى ، وما يأمله صغيرهم هو ما يأمله كبيرهم ، وما يضر أحدهم يضر مجموعهم ، فهم على تعدد أشخاصهم وتباعد بلادهم نفس واحدة ، وقلب واحد ، ورجل واحد ، وعلى هذا الأساس شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالجسد الواحد إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وإذا كان الإسلام فى حقيقته عقيدة ونظاما ، فإن طبيعته تقتضيه أن يكون حكما ، ذلك أن قيام العقيدة يقتضى قيام النظام الذى أعد لخدمتها ، ولا يمكن أن يقوم النظام الإسلامى إلا فى ظل حكم إسلامى يماشى النظام الإسلامى ويؤازره ، إذ أن كل حكم غير إسلامى لا بد أن يؤدى إلى تعطيل النظام الإسلامى ، وإذا كان قيام النظام الإسلامى يقتضى قيام حكم إسلامى فمعنى ذلك أن الحكم الإسلامى من مقتضيات الإسلام أو هو من طبيعة الإسلام .

الإسلام دين ودولة

والإسلام ليس ديناً فحسب وإنما هو دين ودولة وفى طبيعة الإسلام أن تكون له دولة ، ولو حذفنا النصوص الصريحة التى أوردناها فيما سبق والتى توجب الحكم بما أنزل الله ، لما غير ذلك شيئاً من طبيعة الإسلام التى تقتضى قيام الحكم الإسلامى والدولة الإسلامية ، فكل أمر فى القرآن والسنة يقتضى تنفيذه قيام حكم إسلامى ودولة إسلامية لأن تنفيذه كما يجب غير مأمون إلا فى ظل حكم إسلامى خالص ودولة إسلامية تقوم على أمر الله . وقيام الإسلام نفسه فى الحدود التى رسمها الله وبينها الرسول يقتضى قيام دولة إسلامية تقيم الإسلام فى حدوده المرسومة ، وذلك منطق لا يجحده إلا مكابر ، إذ أن الإسلام لا يمكن أن يقوم على وجهه الصحيح فى ظل دولة غير إسلامية لا يهمها أن يقام ، ولا يضرها أن ينتقص منه ، ولا يمنعها شيء من تعطيله أو الانحراف به ، وإنما يقوم الإسلام على وجهه الصحيح فى ظل دولة تقوم على مبادىء الإسلام ، وتتقيد بحدوده .

وأكثر ما جاء به الإسلام لا يدخل تنفيذه فى اختصاص الأفراد وإنما هو من اختصاص الحكومات وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته وأن الإسلام دين ودولة .

فالإسلام قد أتى بتحريم كثير من الأفعال ، واعتبر إتيانها جريمة يعاقب عليها ، وفرض لهذه الجرائم عقوبات ، ومن هذه الجرائم القتل العمد وعقوبته القصاص : « ياأيها الذين آمنوا كُتِب عليكمُ القِصاصُ فى القتلَى » البقرة : ١٧٨ . والسرقة وعقوبتها قطع اليد : « والسَّارقُ والسارِقة فاقْطَعُوا أيديهما » المائدة : ٣٨ . والقذف وعقوبته الجلد : (والذين يَرْمُون المحصنات ثم لم يأْتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جَلْدَة) النور : ٤ . ولا جدال فى أن تحريم الأفعال واعتبارها جرائم وفرض العقوبات عليها إنما هو من مسائل الحكم ومن أخص ما تقوم به الدولة ، ولو لم يكن الإسلام ديناً ودولة لما سلك هذا المسلك .

ولا شك أن القرآن لم يأت بالنصوص الخاصة بالجرائم عبثاً ، وإنما جاء بها لتنفذ وتقام ، وإذا كان القرآن قد أوجب على المسلمين إقامة هذه النصوص وتنفيذها ، فقد أوجب عليهم أن يقيموا حكومة ودولة تسهر على إقامة هذه النصوص ، وتعتبر تنفيذها بعض ما يجب عليها .

والإسلام يوجب المساواة بين الناس فى قوله تعالى : (يا أيها النَّاس إنَّا خَلقنا كم منْ ذكرٍ وأُنثى وجَعلنا كم شُعوباً وقَبائلَ لِتعارَفُوا إنَّ أكرَمكم عِند اللهِ أتقا كم) الحجرات : ١٣ . وفى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضلَ لعربى على عجمى إلى بالتقوى » . وأخذ الناس بالمساواة داخل فى اختصاص الحكومات ولا يدخل فى اختصاص الأفراد .

والقرآن يوجب العدالة فى الحكم : (وإذا حكمتم بين النَّاسِ أنْ تحكمُوا بالْعَدل) النساء : ١٣٥ . والعدالة فى الحكم من أخص شئون الحكومات والدول .

والإسلام يحرم الاحتكار فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يحتكر إلا خاطىء » . ويحرم الرّبا فى قوله تعالى : (وأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وحرَّمَ الرِّبا)

البقرة : ٢٧٥ . ويحرم استغلال النفوذ والرّشوة فى قوله تعالى : (ولاَ تأْكلوا أموالكم بينكم بِالْباطلِ وتُدْلوا بها إلى الحكام لِتأْكلوا فَرِيقًا من أموالِ النَّاس بالإثِم وأَنتم تعلَمُون) البقرة : ١٨٨ . وتحريم الاحتكار والرّبا والاستغلال والرشوة من أول ما تعمل له الحكومات الصالحة ومن أهم اختصاصاتها .

والإسلام يفرض ضرائب على الأموال : (خُذْ من أَموالِهِم صَدقة تطهرهم وتزكيهم بها) التوبة : ١٠٣ . ويفرض فى أموال الأغنياء حقوقاً للفقراء (والذين فى أموالِهِم حقٌّ معلوم للسّائلِ والمحروم) المعارج : ٢٤ . ويحمل الثروات أحمالا من الضرائب التى تنفق فى سبيل الله وعلى ذوى الحاجة على ما رأينا فى فصل المال ويقيد من فى يدهم المال بقيود شتى ، وكل هذا من أخص أعمال الحكومات فى أقدم العهود وأحدثها ، بل هو أهم ما يقيم الحكومات ويسقطها .

والإسلام يوجب أن يكون الحكم شورى بقوله تعالى : (وأَمْرُهُمْ شُورَى بينهم) الشورى : ٣٨ . وقوله : (وشاوِرهُمْ فِي الأمر) آل عمران : ١٥٩ . وإقامة حكم الشورى تقتضى قيام حكم إسلامى ودولة إسلامية ، ولو لم يكن الإسلام ديناً ودولة لما تعرض لشكل الحكومة وبين نوعها .

والإسلام بعد ذلك قد جاء بنصوص يصعب حصرها تنظم صلات الأفراد بالحكومات ، وصلة الحكومات بالأفراد ، وتنظم التصرفات والمعاملات من بيع وإيجار وهبة ووصية وزواج وطلاق إلى غير ذلك ، وتنظم الإدارة والاقتصاد ، وتحكم الفتن الداخلية والمنازعات الدولية ، والسلم والحرب والصلح والمعاهدات ، وتحكم كل شأن من شئون الأفراد وشئون الجماعات ، وتقيم الجماعة على أساس من المساواة والتعاون والتضامن الاجتماعى ، وهذه النصوص فى مجموعها تكون دستوراً للحكم يبذ كل دستور وضعى عرف حتى الآن ، وتكون شريعة تحكم كل التصرفات هى أسمى ما عرف إلى اليوم من تشريعات ، وكل هذه أمور لا يقوم

عليها ولا يمكن أن يضطلع بها إلا الحكومات والدول ، فإذا جاء بها الإسلام وأوجبها ، فقد جاء بالحكومة وأوجب قيام الدولة ، ما يجادل فى ذلك عاقل ولا يستسيغ غيره عقل .

وإذا ما قلنا إن الإسلام دين ودولة ، فقد يذهب الظن بالبعض إلى أن الإسلام يفرق بين الدين والدولة ، وهذا ظن خاطئ ، فإن الإسلام مزج الدين بالدولة ، ومزج الدولة بالدين ، حتى لا يمكن التفريق بينهما ، وحتى أصبحت الدولة فى الإسلام هى الدين ، وأصبح الدين فى الإسلام هو الدولة .

فالإسلام يقيم شئون الدنيا كلها على أساس من الدين ، ويتخذ من الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شئون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين .

والدولة المثالية فى الإسلام هى الدولة التى تقيم أمور الدنيا بأمر الدين ، فتأخذ رعاياها بما أمر الله ، وتمنعهم عما نهى الله : « الذين إن مكنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » الحج : ٤١

والدين فى الإسلام ضرورى للدولة ، والدولة ضرورة من ضرورات الدين ، فلا يقام الدين بغير الدولة ، ولا تصلح الدولة بغير الدين .

الحكومة الإسلامية ، وظيفتها ومميزاتها

الحكومة التي تقيم أمر الله :

إذا كان الله جلّ شأنه قد أوجب علينا أن نتحاكم إلى ما أنزل على رسوله ، وأن نحكم به ، فقد وجب على المسلمين أن ينصبوا عليهم حكومة تقم فيهم أمر الله وترعاه ، ويتعبد أفرادها بإقامة الحكم طبقاً لما أنزل الله كما يتعبَّدون بالصوم والصلاة .

والأصل في الحكومات أنها ضرورة اجتماعية لامفرّ منها ، فإذا كان الحكم يتميز بصفات معينة ، فقد وجب أن تتصف الحكومة القائمة عليه بنفس هذه الصفات ضماناً لنجاح الحكم ، فما يستطيع فاقد الشيء أن يعطيه ، وما يحسن القيام على الفكرة إلا مؤمن بها .

وعلى هذا فإذا وجب أن يقوم الحكم طبقاً لشريعة الإسلام فقد وجب أن تكون الحكومة إسلامية ، يؤمن أفرادها جميعاً بالمبادئ التي يقوم عليها الحكم ويحرصون على العمل بها .

وإذا وجب أن يكون الحكم اشتراكياً فمن البلاهة أن يترك الحكم لمن لايؤمنون بالاشتراكية .

وإذا وجب أن يكون الحكم ديموقراطياً فلن يصلح له حكام يؤمنون بالديكتاتورية .

ذلك هو منطق الناس ، وتلك هي طبائع الأشياء ، فمن أراد أن يقيم الإسلام بحكومة تتحاكم إلى غير شريعة الإسلام فإنما يعمل على تحطيم الإسلام .

منطق التجارب

ولقد أثبتت التجارب في البلاد الإسلامية أنه لا يكفي لإقامة الإسلام أن يكون الحكام مسلمين ، وإنما يجب أن يتحاكموا إلى الإسلام ، ويتخذوا القرآن

دستوراً للحاكمين والمحكومين ، وأمامنا البلاد الإسلامية كلها ليس فيها بلد واحد يقيم حكم الإسلام ويخضع له فى كل الشئون بالرغم من أن حكامها وأغلب سكانها من المسلمين .

بل لقد أثبتت التجارب أن الحكام المسلمين الذين يجهلون الإسلام ولا يعملون على إقامة أحكامه كانوا وما زالوا حربا على الإسلام وآلة طيعة فى يد أعداء الله الذين يكيدون للمسلمين والإسلام ، وفى عهود هؤلاء الحكام الجهال استبيحت حرمات الإسلام فحرِّم ما أحل الله وأحل ما حرم الله ، وانتشر الفساد فى المجتمع الإسلامى وشاعت الفاحشة ، وانحسر مد الإسلام وذهبت ريحه ، وسيطر على بلاده وأهله من لم يكن يطمع فيهم بالأمس بل ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

هذا هو منطق البشر ومنطق الواقع ومنطق التجارب كل ذلك يقضى بأن قيام الحكم الإسلامى يستوجب أن تؤلف الحكومات ممن يؤمن بالنظام الإسلامى وممن لا هم لهم إلا إقامة الإسلام وتثبيت دعائمه ، وسنرى فيما يأتى أن هذا هو منطق القرآن نفسه .

وظيفة الحكومة إقامة أمر الله ولقد جعل الإسلام وظيفة الحكومة الإسلامية إقامة الإسلام حيث افترض القرآن فى الحكومة الإسلامية أن تقضى على الشرك وتمكن للإسلام ، وأن تقيم الصلاة وتأخذ الزكاة ، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأن تسوس أمور الناس فى حدود ما أنزل الله ، وذلك قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ : وقوله « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » الحج : ٤١ :

والأمر بالمعروف هو الترغيب فى كل ما ينبغى قوله أو فعله طبقا للإسلام ، والنهى عن المنكر هو الترغيب فى ترك ماينبغى تركه أو تغيير ماينبغى تغييره طبقا لما رسمه الإسلام ، فإذا قامت الحكومة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أقامت كل ما أمر به الإسلام وهدمت كل ما يخالف الإسلام .

ولقد أوجب علينا القرآن أن نطيع الحكام والحكومات ولكنه أوجب على الحاكمين والمحكومين إذا تنازعوا فى شيء أن يردوه إلى حكم الله ، وأن يحكموا فيه بما أنزل الله « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[1] فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول » النساء : ٥٩ : ورد المتنازع فيه إلى حكم الله يقتضى أن تكون الحكومة والحكام قائمين على أمر الله حاكمين بما أنزل الله على رسوله . وإعطاء المحكومين حق منازعة الحكام ورد المتنازع فيه إلى أمر الله يقتضي أن يكون الحكام مقيدين بأمر الله لا يسمح لهم بالانحراف عما أنزل الله .

وإذا كانت الحكومات تقوم على طاعة المحكومين وكان من مبادىء الإسلام أن يطيع المحكومون أولى الأمر فيهم والقائمين على شئونهم من الحكام ، فإن من مبادىء الإسلام أيضاً أن يخلع المحكومون طاعة الحاكمين إذا ما خرج الحاكمون على طاعة الله وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وبذلك ربط الإسلام طاعة المحكومين للحاكمين بطاعة الحاكمين لأمر الله ، فالحكومة الإسلامية يجب أن تقوم على أمر الله وليس لها بأية حال أن تنحرف عما أنزل الله وإلا فقدت حقها فى الطاعة وبالتالى حقها فى الحكم .

---

(١) يفسر البعض « أولى الأمر » بالحكام ، ويفسرها غيرهم بأهل الشورى .

وإذا كان حق الحكومة فى الطاعة وفى الحكم ثابتا كلما كانت نازلة على أمر الله ، فيتعين أن تكون وظيفتها هى القيام على أمر الله والعمل بكتابه .

مميزات الحكومة الإسلامية

تختلف الحكومة الإسلامية عن كل حكومة موجودة فى العالم الآن ، وعن كل حكومة وجدت من قبل ، فهى حكومة فريدة فى نوعها متميزة عن كل حكومة غيرها .

وتتصف الحكومة الإسلامية بثلاث صفات لاتوجد فى غيرها من الحكومات فهى أولا : حكومة قرآنيــة ، وهى ثانياً : حكومة شورى ، وهى ثالثاً : حكومة خلافة أو إمامة .

الصفة الأولى حكومة قرآنيــة

تتميز الحكومة الإسلامية بأنها حكومة قرآنية أى أنها خاضعة للقرآن وهو الكتاب الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والقرآن هو دستور الحكومة الإسلامية الأعلى ، يحكم تصرفاتها ويحدد حقوقها وواجباتها بصفة عامة ، ويرسم لها الخطوط والمناهج العامة التى لا يصح لها أن تتعداها ، ويدع لها مادون ذلك من المناهج والتفصيلات . كما أن القرآن فى الوقت نفسه يبين حقوق الأفراد وواجباتهم ، ويحدد علاقتهم بالحكومة ومدى سلطانها عليهم ومدى خضوعها لسلطانهم .

ويتميز القرآن بميزات متعددة تخالف بينه وبين أى دستور آخر عرفه البشر ، ويهمنا من هذه الميزات ما يأتى : —

١ — أنه كلام الله أوحى به إلى نبيه محمد النبى الأمى ليبلغه للناس نوراً يخرجهم به من الظلمات وهدى يعصمهم من الضلال « وما كان لبشر أن يكلمه

الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فَيُوحِيَ بإذنه ما يشاء إنه عَلِيٌّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور » الشورى : ٥١—٥٣ : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً » الشورى : ٧ : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩

٢ — أن المسلمين مكلفون باتباع ماجاء به القرآن وبالاستمساك به ، وليس لهم أن يخرجوا عليه بأية حال « واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » يونس : ١٠٩ : « واتبع ما يوحى إليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا » الأحزاب : ٢ : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » الزخرف ٤٣ : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » الأعراف : ٣ : « اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين » الأنعام : ١٠٦ :

٣ — أن القرآن لا يقبل التبديل ولا التعديل لأنه من عند الله ولا مبدل لكلمات الله « وقال الذين لا يرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى » يونس : ١٥ « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » الكهف : ٢٧ : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » الأنعام : ١١٥ : « لا تبديل لكلمات الله » يونس : ٦٤ :

٤ — أن القرآن لا يقبل الزيادة ولا يقبل النقص لأنه كمل وتم بوفاة

الرسول صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحى ، أو تم وكمل قبيل وفاته يوم أنزل الله قوله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة : ٣ :

٥ — أن القرآن لايقبل النسخ ، لما سبق ، ولأن الله جل شأنه ختم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الرسالات ، وجعله خاتم النبيين « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب : ٤٠ : ، ولأن البشر وهم مستخلفون فى الأرض ليس لهم أن يخرجوا على أوامر الله الذى استخلفهم ، وليس فى استطاعتهم أن ينسخوا كلامه أو يبطلوا العمل به ، فإن فعلوا فعملهم باطل بطلانا مطلقاً لخروجهم على حدود وظيفتهم وتعرضهم لما ليس من شأنهم .

ونستطيع أن ندلل على عدم قابلية القرآن للنسخ من وجه آخر ، وهو أن القاعدة الأساسية فى الشريعة الإسلامية وفى القوانين الوضعية هى أن النصوص لا ينسخها إلا نصوص فى مثل قوتها أو أقوى منها ، أى نصوص صادرة من الشارع نفسه أو من هيئة لها من سلطان التشريع — على الأقل — مثل ما للهيئة التى أصدرت النصوص المراد نسخها ، فالنصوص الناسخة للقرآن يجب أن تكون قرآناً من عند الله ، وليس بعد الرسول قرآن حيث انقطع الوحى ، ولا يمكن أن يقال إن ما يصدر من هيئاتنا التشريعية البشرية فى درجة القرآن أو إن لها من سلطان التشريع ما لله وللرسول ، وعلى هذا فليس فى طوق البشر أن ينسخوا كلام الله أو يعطلوا العمل به .

الصفة الثانية — حكومة شورى

جعل الله الشورى من لوازم الإيمان ، حيث جعلها صفة من الصفات اللاصقة بالمؤمنين المميزة لهم عن غيرهم « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى

بينهم ومما رزقناهم ينفقون » الشورى : ٣٨ ، فلا يكمل إيمان المسلمين إلا بوجود صفة الشورى فيهم ، ولا يجوز لجماعة مسلمة أن تقيم أو ترضى إقامة أمرها على غير الشورى وإلا كانت آثمة مضيعة لأمر الله .

وأمر الله رسوله أن يشاورهم فى الأمر « وشاورهم فى الأمر » آل عمران : ١٦٠ وما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما هى فريضة فرضها عليهم ، ففرض على الحاكم أن يستشير فى كل ما يمس الجماعة وفرض على الجماعة أن تبدى رأيها فى كل أمورها ، فليس للحاكم أن يستبد برأيه فى الشئون العامة ، وليس للجماعة أن تسكت فيما يمس مصالح الجماعة ، وهذا يتفق مع ما يفرضه القرآن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » آل عمران : ١٠٤ .

وإذا كانت الشورى فريضة من الفرائض الإسلامية فإنها ليست مطلقة بحيث تمتد إلى كل أمر ، وإنما تجب فقط فيما لم يقطع فيه القرآن والسنة برأى ، أما ما قطع فيه القرآن والسنة برأى فهو خارج عن نطاق الشورى إلا أن تكون الشورى فى حدود التنفيذ والتنظيم لما نص عليه القرآن وبينته السنة .

والشورى ليست مطلقة من كل قيد فيما تجب فيه ، وإنما هى مقيدة بأن لا تخرج عن حدود ما جاء به القرآن والسنة ، فلا يجوز بأية حال أن تؤدى الشورى إلى مخالفة نصوص التشريع الإسلامى أو إلى الخروج على روح التشريع ، ويجب دائماً أن تجيء الشورى مطابقة للتشريع الإسلامى ومتابعة لاتجاهاته وروحه .

والتقيد بالتشريع الإسلامى وباتجاهاته وروحه يقتضى أن يكون الحكام وأهل الشورى ، أو أكثرهم ، ممن يلمون بالتشريع الإسلامى ويفهمون روحه واتجاهاته ، ومعنى هذا أن تنحصر الشورى فيمن تتوفر فيهم صفات معينة .

الصفة الثالثة ـ حكومة خلافة أو إمامة

رأينا فى باب الاستخلاف أن الله استخلف البشر فى الأرض وأن الاستخلاف على ثلاثة أنواع : استخلاف عام ، واستخلاف دول ، واستخلاف أفراد ، وقلنا إن استخلاف الأفراد هو الاستخلاف فى الرئاسة ، وأن المستخلف قد يسمى خليفة كما سمى داود عليه السلام « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ص : ٢٦ ، وقد يسمى المستخلف إماماً كما سمي إبراهيم عليه السلام و بعض رؤساء بنى إسرائيل « و إذا ابتلى إبراهيم ر به بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » البقرة : ١٢٤ ، « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، وقد يسمى المستخلف ملكا « و إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جَعَلَ فِيكُم أنبياء وجعلكم ملوكا » المائدة ٢٠ « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » البقرة : ٢٤٧ .

والخلافة والإمامة والملك لا يقصد منها فى نصوص القرآن إلا الرئاسة بمعناها العام ، ولا يقصد منها الدلالة على نظام معين من أنظمة الحكم ، ذلك أن داود سمى فى القرآن خليفة وسمى ملكا « يا داود إنا جعلناك خليفة » ص . ٢٦ : « وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك » البقرة : ٢٥١ : كما أن إبراهيم سمى فى موضع إماما ووعد أن يكون المهتدون من ذريته أئمة « قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » بينما وصف ذريته فى موضع آخر بوصف الملوك « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » النساء : ٥٤ : ووعد بنو إسرائيل أن يكونوا أئمة بعد إستضعافهم و إستعباد فرعون لهم « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » القصص : ٥ : فلما تخلصوا من ظلم فرعون وكونوا لأنفسهم دولة مستقلة أخذ موسى يذكرهم بنعمة

الله عليهم ويقول لهم « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » المائدة : ٢٠ : فالخلافة والملك والإمامة مترادفات تدل على الرئاسة العليا للدولة ولا تدل على أكثر من ذلك .

ونظام الحكم الوحيد الذى يعرفه الإسلام هو الحكم القائم على دعامتين : إحداهما : طاعة أمر الله واجتناب نواهيه ، والثانية : الشورى أى أن يكون أمر الناس شورى بينهم . فإذا قام الحكم على هاتين الدعامتين فهو حكم إسلامى خالص ، وليسمى بعد ذلك بالخلافة أو الإمامة أو الملك فكل هذه التسميات تسميات صحيحة لا غبار عليها .

أما إذا قام الحكم على غير هاتين الدعامتين فهو حكم لا ينتسب للإسلام بنسب ولا يتصل به بسبب ولو سمى خلافة أو إمامة ، وأقرب الأمثلة على ذلك حكم الخلفاء الأتراك فى عهودهم المتأخرة فقد كان رؤساء الدولة يسمون أنفسهم خلفاء وتسمى دولتهم دولة الخلافة وتسمى حكومتهم حكومة الخلافة ولكنهم كانوا هم ودولتهم وحكومتهم أبعد شىء عن نظام الحكم الإسلامى .

ولقد استقر أمر العالم كله قبل أن يجىء الإسلام على أن يكون نظام الحكم الملكى وراثيا يتوارثه الأبناء عن الأباء ، وأصبحت لهذا النظام سمات وعلامات تميزه عن غيره من أنظمة الحكم ، فهو يتميز فضلا عن الوراثة بتعالى الملوك وإستعلائهم المستمر على الرعايا ، ويتميز بما يحيط الملوك أنفسهم به من الترف الذى يهيىء لسقوط الهمم وفساد الأخلاق وتفشى المنكرات ، ويتميز أخيرا بأنه يؤدى بطبيعته إلى الفساد العام .

ولما كان هدف الإسلام هو الإصلاح والتسوية بين الناس وتوفير الخير وإشاعته بينهم فقد كره لهم التعالى ، وحرم عليهم أن يريدوا الاستعلاء ، كما حرم عليهم كل

ما يؤدى إلى الفساد ، ونبه المسلمين إلى أن هذه الصفات ليست من صفات المتقين المؤمنين فى شىء « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » القصص : ٨٣ :

ولقد جاء الإسلام بالشورى ففرضها على المسلمين وألزمهم أن يجعلوا كل أمورهم شورى بينهم « وأمرهم شُورى بينهم » الشورى : ٣٨ : والشورى تقتضى أن تختار الأمة رئيس الدولة وأن تعزله إذا جد منه ما يستلزم عزله ، وهذا وحده يتنافى مع ما استقر عليه نظام الحكم الملكى من توارث الحكم .

ولأن نظام الحكم الملكى كان عندما جاء الإسلام متميزاً بالوراثة وبالعلو فى الأرض والإفساد فيها فقد كره المسلمون أن يسموا أنفسهم ملوكا ، وكان أول من كره ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عنه أنه قال لرجل وقف بين يديه فأخذته رعدة « هون عليك فما أنا بملك ولا جبار » وجرى على ذلك خلفاؤه من بعده ، حتى إذا أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد أخذ أصحاب الرسول والتابعون يرمون معاوية خاصة وبنى أمية عامة بأنهم حولوا الحكم الإسلامى إلى ملك عضوض وإلى حكومة كسروية ، أو هرقلية نسبة إلى كسرى ملك الفرس وهرقل ملك الروم .

وإذا كان التباين بين الحكم الإسلامى فى طبيعته ونظام الحكم الملكى فى أوضاعه المستقرة قد اقتضى المسلمين أن يكرهوا تسمية أنفسهم بالملوك وتسمية نظام الحكم بالملك ، فقد اقتضاهم أيضاً أن يبحثوا فى تسميات أخرى ، فأسعفتهم النصوص القرآنية الواردة فى استخلاف الحكم بما يريدون ، فسموا نظام الحكم بالخلافة أو الإمامة ، وسموا رئيس الدولة بالخليفة أو الإمام .

وقد جرت العادة على أن تسمى إمامة الحكم بالإمامة العظمى تمييزاً لها عما عداها من الإمامات كإمامة الصلاة ، وتبعاً لذلك يسمي رئيس الدولة بالإمام الأعظم أى الإمام الذى ليس فوقه إمام .

ويرى البعض أن لفظ الخلافة اختير لنظام الحكم الإسلامى وأن رئيس الدولة سمى بالخليفة ، لأن من جاء بعد النبى صلى الله عليه وسلم خلف النبى فى رئاسة الدولة فسمى خليفته وسمى منصبه بالخلافة بدليل أن المسلمين كانوا ينادون أبا بكر بخليفة رسول الله ، وهذا فى الحقيقة ليس شيئاً ولكنهم راعوا فى التسمية نصوص القرآن ، وسموا رئيس الدولة خليفة وإماماً متأثرين بالنصوص ، ولقد كان أبو بكر رئيس دولة فاعتبر بنص القرآن خليفة وإماماً ، وكان فى الوقت نفسه خليفة لرسول الله لأنه خلفه فى الحكم .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى رئاسته للدولة بين النبوة وخلافة الحكم ، فهو نبى باعتبار ما يوحى إليه وخليفة باعتباره رئيس الدولة فإذا خلفه أحد فى الحكم فهو خليفته باعتباره خلفاً له ، وهو خليفة باعتباره مستخلفاً من الله فى الحكم .

والأصل أن البشر كلهم مستخلفون فى الأرض استخلافاً عاماً ، فهم نواب عن الله عز وجل فى الأرض وعليهم أن يقوموا على أمره ونهيه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقيموا أمر الله على ما ينبغى إذا كانوا أفراداً لا تربطهم رابطة ، ولا يجمعهم سلطان يخضع له قويهم ويفىء إليه ضعيفهم ، كما أن طبيعة الاجتماع والضرورات الاجتماعية تقتضى أن يقيموا حكومة تفصل بينهم فى مشاكلهم وتنوب عنهم جميعاً فى القيام بأمر الله ، وبما رتبه عليهم واجب الاستخلاف فى الأرض وواجب الاستخلاف فى الحكم .

وإذا كانت الحكومة نائبة عن الجماعة لتقيم فيهم أمر الله ، ولتشرف على مصالح الجماعة ، وكان الخليفة أو الإمام هو ممثل الحكومة الأول ، فإنه يعتبر نائباً عن الجماعة كلها فى وظيفة الخلافة التى جعلت لإقامة ما يجب على الجماعة كلها من أداء حق الله وإنفاذ أمره ، وللفصل فى خصومات الأفراد وكف قويهم عن ضعيفهم

ونشر العدالة والمساواة بينهم ، وأخذهم بالتعاون والتضامن وتوجيههم إلى الخير والبر كل ذلك فى حدود ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه .

ولا يعتبر الخليفة نائباً عن الله جلَّ شأنه إلا بقدر مايعتبر أى فرد آخر على وجه الأرض . وإذا قيل إن الخليفة بنيابته عن الجماعة التى تنوب عن الله يعتبر النائب عن الله فإنه يرد على ذلك بأن نيابة الخليفة عن الله فى هذا الوجه هى نيابة غير مباشرة ولم ينظر إليها فى إقامة الخليفة ، وما أقامت الجماعة الخليفة إلا ليكون نائباً عنها ، وما استمد ولا يستمد سلطانه إلا من نيابته عن الجماعة التى أقامته والتى تملك حق مراقبته ومنعه من الخروج على حدود نيابته ، بل للجماعة أن تقيد تصرفاته ، وأن ترسم له الطريق التى يسلكها فى تأدية واجب النيابة عنها ، وقواعد النيابة تقضى بذلك ، كما أن الإسلام يفرضه على الناس حيث أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمنع الحكام من الظلم والتعسف فى استعمال حقوقهم ، ولمنعهم من الإهمال فى أداء واجباتهم ، ولمراقبة الحكام والمحكومين فى إقامة أمر الله وإنفاذه على وجهه « ولتكن منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » آل عمران : ١٠٤

وولاية الخلافة لا تتم إلا باختيار الجماعة للخليفة ، ليس ذلك لأنه منطق الضرورات الاجتماعية الذى سبق بيانه ، ولكن لأن القرآن فرض على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم « وأمرهم شورى بينهم » الشورى : ٣٨

فلا يصح أن يستأثر بأمر المسلمين أحد بغير رضاء جماعتهم ، ولا تعتبر ولاية الخليفة قائمة إلا بالاختيار ممن لهم حق اختيار الخليفة ، وبالقبول من جانب الشخص الذى وقع عليه الاختيار .

واختيار الخليفة على هذا الوجه يؤكد أن الخلافة ليست إلا عقد نيابة يتم بين الجماعة والخليفة ، فتكل الجماعة إلى الخليفة أن يقوم فيها بأمر الله ، وأن يدير شئونها

فى حدود ما أنزل الله ، ويقبل الخليفة أن يقوم بالأمر فى الجماعة طبقاً لما أمر الله .

وولاية الخلافة ليست محدودة بمدة معينة ، فما دام الخليفة قائماً بأمر الله وعلى قيد الحياة فهو خليفة . فإذا خرج على أمر الله ، أو قامت فيه صفة تستوجب العزل كان للجماعة عزله وتولية غيره ، و إذا مات انتهت ولايته بموته .

نوع الحكومة الإسلامية

قلنا فيما سبق إن الحكومة الإسلامية فريدة فى نوعها ، متميزة عن غيرها ، وإنها تختلف عن كل حكومة موجودة فى العالم الآن ، وعن كل حكومة وجدت من قبل . وسنبين فيما يلى أن الحكومة الإسلامية لا يمكن إدخالها تحت أى نوع من أنواع الحكومات التى عرفها العالم ، وإنها حكومة لامثيل لها .

فالحكومة الإسلامية كما عرفنا مقيدة باتخاذ القرآن دستوراً لها ، وملزمة بالنزول على أحكامه التى لا تقبل تبديلا ولا تعديلاً ولا تعطيلا ، فهى بذلك ليست من نوع الحكومات المستبدة المطلقة من كل قيد ، كما أنها ليست من نوع الحكومات القانونية ، لأن الحكومات القانونية تخضع لقوانين وأنظمة يضعها البشر وهم متأثرون بأهوائهم وشهواتهم ، والقوانين والأنظمة التى يضعها البشر قابلة للتبديل والتعديل والإلغاء إذا ما قضت بذلك أهواء البشر وشهواتهم . أما أحكام القرآن فهى من عند الله ، وهى دائمة إلى الأبد لا تماشى أهواء الحكام ولا أهواء المحكومين ، وإنما تعدل بين الفريقين وتوفى كلاًّ حقه فى حدود العدل الخالص مع حفظ مصلحة الجماعة .

ولتكون الموازنة كاملة ينبغى أن تعلم أن نصوص القرآن جاءت بالأحكام الكلية ، ورسمت المناهج العامة للحكم والإدارة ، وتركت مادون ذلك لأولى الأمر ينظمونه بقوانين يضعونها ، ولكن هذه القوانين ، وهى من وضع البشر يجب أن

يراعى فيها ألا تخرج على أحكام الإسلام العامة ، وأن تكون تطبيقاً دقيقاً لروح الشريعة الإسلامية ، فهذه القوانين التي يضعها أولو الأمر ليست في الحقيقة إلا صدى القرآن وظله ، وهناك فرق كبير بينها وبين القوانين التي يضعها البشر غير مقيدين إلا بآرائهم وأهوائهم ومصالحهم .

وإذا كان من أخص صفات الحكومة الإسلامية أنها حكومة شورى فإنها لا تشبه في شيء الحكومات النيابية ، كما أنها تخالف في طبيعتها الحكومات غير النيابية ، وإذا كان أساس الحكومات النيابية في العالم هو الشورى إلا أن الشورى في الحكومة الإسلامية لا تشبه في شكلها ، ولا نوعها ، ولا الغرض منها ، تلك الشورى التي تقوم عليها الحكومات النيابية .

وإذا كان من وظيفة الحكومة الإسلامية أن تقيم الدين فإنها لا تعتبر من نوع الحكومات الدينية التي يسميها الفقه الدستوري حكومات تيوقراطية ، إذ أن الحكومة الإسلامية لا تستمد سلطانها من الله وإنما تستمده من الجماعة . وهي لا تصل للحكم ولا تنزل عنه إلا برأي الجماعة ، وهي مقيدة في كل أعمالها وتصرفاتها برأي الجماعة . والتزام الحكومة حدود الدين الإسلامي لا يغيِّرُ من هذه النتيجة شيئاً ما ، لأن الدين الإسلامي يدعو الناس أن يعملوا لدنياهم قبل أن يدعوهم ليعملوا لأخراهم ، بل أنه يرتب الحياة الأخرى على ما يعمله المرء في حياته الدنيا فهو دنيا قبل أن يكون دينا ، وهو أولى قبل أن يكون آخرة ، وإذا كان الإسلام قد حد للناس حدوداً لا يتعدونها ، ووضع لهم أحكاماً ألزمهم اتباعها فإنه لم يسلبهم حريتهم في العمل ، ولم يملك عليهم كل أمرهم ، بل ترك لهم أن يفكروا في أنفسهم وأن يدبروا حياتهم وأن يعملوا بوسائلهم ، وترك لهم أن ينظموا أنفسهم وأن يرعوا مصالحهم الخاصة والعامة ، وأن يعدوا لمستقبلهم ما يشاءون من الخطط التي تؤدي إلى رقيهم وإسعادهم وتفوقهم .

ونستطيع أن نقول فى غير تجوز إن الإسلام ترك للبشر الحرية كاملة فيما يأخذون وما يدعون ، ولم يقيدهم إلا بأن تكون حياتهم قائمة على الفضائل حتى يحيوا حياة فاضلة تسودها العدالة والمساواة والحب والتضامن وغير ذلك من المبادىء الإنسانية العليا التى جاء بها الإسلام والتى يدعى العالم كله أنه يعمل لتحقيقها وما يستطيع أن يحققها بعد أن انسلخ عن الدين واتبع الأهواء والشهوات ، تلك المبادىء التى يتطلع العالم إليها و يعلم أن صلاحه يتوقف عليها ، تلك المبادىء التى نسميها إنسانية وما عرفها أهل الأرض إلا عن طريق السماء ورسالات الأنبياء .

ولقد فرض الله الشورى على المسلمين وجعلها عماداً لحياتهم العامة ، ولو كانت الحكومة الإسلامية حكومة تيوقراطية لما كانت الشورى ، ولما ألزم الله رسوله أن يشاورهم فى الأمر « وشاورهم فى الأمر » آل عمران : ١٥٩ : وهو فى غنى عن مشاورة البشر بالوحي الإلهى ، ولما ألزم الرسول نفسه نتائج المشورة المخالفة لرأيه الخاص كما فعل فى غزوة بدر وغزوة أحد وغيرهما من المواقف ، و إنما ألزم الله رسوله المشورة ليضع للناس قواعد الشورى ، وألزم الرسول نفسه بنتائج المشورة ليسنّ لمن بعده أن يلتزم نتائجها و يتقيد بها .

ولو كانت الحكومة الإسلامية تيوقراطية لكان للخليفة أن يفعل ما يشاء و يترك مايشاء ، ولكن الخليفة وكل حاكم إسلامى مقيد ، فيما ورد فيه نص ، بنصوص القرآن والسنة ، وفيما لم يَرد فيه نص بما تسفر عنه الشورى .

و إذا كان نظام الحكم الديموقراطى يشبه نظام الحكم الإسلامى فيما يوجبه من اختيار الحكام بمعرفة ممثلى الأمة وفيما يوجبه من قيام الحكم على العدل والمساواة وفيما يطلقه من حرية العقول والأفكار ، فإن نظام الحكم الإسلامى يختلف عن الديموقراطية فى أنه يقيد الحاكمين والمحكومين بقيود تمنعهم من الانطلاق وراء الأهواء وتحول بينهم و بين الخضوع للشهوات . كذلك يختلف

الإسلام عن الديموقراطية فى أنه لا يترك مقاييس العـدالة والمساواة وغير ذلك من الفضائل الإنسانية فى يدالبشر يرسمون حدودها فيوسعونها تارة ويضيقون منها أخرى نزولا على أهوائهم وخضوعاً لشهواتهم ، وإنما يرسم الإسلام حدود الفضائل والمبادىء الإنسانية ويضع مقاييسها ويخضع البشر لهذه المقاييس العلوية ، وبذلك حمى الإسلام الحياة العامة من الفساد ، وكبح الأهواء ، وأقام الحكم على أسس من الفضيلة يسلم بها الجميع ويحترمونها ولا يأنفون من الخضوع لها .

أما الديموقراطية فتترك للبشر أن يرسموا حدود كل شيء وأن يضعوا المقاييس للحياة البشرية ومن ثم جمحت بهم الأهواء والشهوات وتغلبت عليهم المصالح والمنافع وانقلبت المجتمعات الديموقراطية إلى مجتمعات متحللة فاسدة تشيع فيها الرذائل وتعيش على مسخ المعانى السامية والفضائل الإنسانية ، فالعدالة تقاس بمقياس القرابة والزلفى والحقوق لا تصل لأربابها إلا عن طريق الرشوة والمحسوبية ، والتحرر العقلى معناه الانطلاق من الحياء والدين والأخلاق وهدم كل مايميز الإنسان العاقل عن الأنعام والسوائم .

وإذا كان النظام الجمهورى يشبه النظام الإسلامى من حيث اختيار الرئيس الأعلى للجمهورية فإنه لا يوجد أى نظام جمهورى يسمح بانتخاب رئيس الدولة لمدى الحياة كما يسمح بذلك النظام الإسلامى ، فضلا عما سبق بيانه من وجوه الخلاف بين النظام الإسلامى والأنظمة الديموقراطية .

وليس بين النظام الإسـلامى و بين الأنظمة الديكتاتورية أى وجه من وجوه المشابهة ، فالنظام الإسلامى يقوم على البيعة والشورى ، وعلى حدود مرسومة بين الحاكمين والمحكومين ، وعلى جواز عزل الحاكم ، ولا تسمح الأنظمة الديكتاتورية بشيء من ذلك .

ويختلف نظام الحكم الإسلامى عن أنظمة الحكم الملكية ، فما يورث الحكم والسلطان فى الإسلام ، وإنما يترك للجماعة أن تختار للحكم من تراه أصلح الناس له وأقدرهم عليه ، وحسبنا دليلا على ذلك أن النبى لقى ربه فما تولى الحكم بعده أحد من أهله وإنما خلفه أبو بكر ، فلما توفى لم يخلفه أحد من أهله وإنما خلفه عمر ، فلما قتل خلفه عثمان وهو من غير أهله ، فلما قتل خلفه على وما كان من أهل عثمان .

وأخيراً فإن كل من يحاول الادعاء بأن نظام الحكم الإسلامى يماثل نظاماً معيناً من أنظمة الحكم التى عرفها العالم قديماً وحديثاً فإنما يتكلف ويدعى ما لا يعلم ويبعد عن الحق ، فالنظام الإسلامى نظام فريد فى نوعه أوجده الإسلام ولم يحاول أحد أن يقلد المسلمين فيه ، بل إن المسلمين أنفسهم لم يطبقوا النظام الإسلامى بعد وفاة النبى إلا فى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم حولت الأهواء هذا النظام الإلهى إلى ملك عضوض لا يتورع أن يعطل أحكام الاسلام ، ويحل حرمات الله ليمكن للأطفال والفساق والظلمة من رقاب المسلمين .


دار الكتاب العربي